

الملك الناصر يوسف والمغول

للدكتور / سعد بن محمد حديفة الغامدي

الأستاذ المشارك في قسم التاريخ - كلية الآداب

جامعة الملك سعود

الرياض

٧/٧/١٤٠٦ هـ الموافق ١٧ مارس ، آذار ١٩٨٦ م



تعرضت بلاد المسلمين ، شرقاً وغرباً ، للعدوان ، وما زالت حتى يومنا هذا تتعرض له ، منذ توقف المد الإسلامي في فتوحاته ، ومنذ استمرع المسلمون حياة الدعة والراحة ، وأخذوا يتفنون في بناء القصور الشائخة والاستطابة في سكنائها ، والتعود على العزلة ، كضريبة للملاذ ، وكان ممن قام بذلك الهجوم ، في العصور الإسلامية الوسيطة ، ضد العالم الإسلامي ، القوى الغربية ، يمثلها في ذلك الصليبيون ؛ والقوى الشرقية ، ممثلة في المغول . ولعل الذي يهنا هنا الأخير منها ، بحكم بحثنا هذا ، فقد قامت حجاجل جنكيز خان المغولية بهجوم مدمر ، وكأنه إعصار من نار ، فأقى على كل حضراء ويابسة ، وذلك في العقد الثاني من القرن السابع الهجرى / ١٣ للميلاد ، فوصل في زحفه ، غرباً ، حتى وصلت قواته ماء نهر دجلة ، وقد ضم مثلها إلى جبال الطاي في أواسط قارة آسيا تحت سلطان المغول ، شرقاً .

ثم جاءت في أول النصف الثاني ، من نفس القرن ، موجة مغولية جارفة أخرى ، لا تقل عن سابقتها ، أيام جنكيز خان ، قوة وعنفاً ، فوصلت في تقدمها إلى حدود الأراضي الشرقية لمصرنا الحبيبة . ولكن الله شاء أن يحمى هاتيك البقاع من ثقل وطأة وتدمير المغول لها بمحادث قدره الله في متغوليا ، وهو وفاة الخان المغولى « منكو » ، فتوقف المد المغولى ، وانحصر إلى الشرق من نهر الفرات ، فرحل هولاءكو ، قائد حملتهم تلك ، وشد رحاله من ضواحي مدينة حلب الشهباء في الشام ، وعاد أدراجه إلى الشرق ، يراقب أحداث الصراع الدامى ، الذى نشب بين أهل بيته على العرش ، من على كعب . وبذلك سلم الله للمسلمين مصرأ (ووضعا مكان العراق ، بعد زوال خلافتها العباسية) وأعاد لهم الشام جميعاً على أيدي المصريين ، بقيادة المماليك فيها ، بعد موقعة عين جالوت الشهيرة ، فقد كانت عين جالوت بمثابة الصخرة التى عثر عليها المغول ، وتحطمت على جنباتها القوة الاسطورية للمغول ، التى ضربت حولهم ، على أنهم قوم لا يقهرون .

جاء المغول إلى المنطقة وكان الحكام والأمراء فيها ، وعلى رأسهم خليفة المسلمين في بغداد ، في غابة الضكك والأنهار ، نتيجة للحروب الأهلية فيما

بينهم ، فكان بعضهم يقتل بعضاً ، ويغزو منهم القسم الآخر ، فينتهك العرض ، ويسلب المال ، ويقتل الأهل والولد ، في حروب مقيمة بينهم ، تغليان قدر على نار شديدة الاستعثار . لذلك كان مجيء المغول إلى المنطقة سهلاً مهيئاً ، ونجاحهم ، لأخذ البلاد واستعباد العباد ، مضموناً ميسوراً ، في ظل ظروف المسلمين وحكامهم فيها ، فقد انحلت قواهم ، وانهدت إمكاناتهم العسكرية ، ونضبت مصادرهم المادية ، ناهيك عما وصلت إليه أحوال شعوبهم ، في كافة مجالاتها ، من تدن إلى أسفل سافلين .

كانت مواقف الحكام المسلمين ، في هذه المنطقة ، تجاه المغول ، بوجه عام ، موالية لهم ، ومستسلمة خاضعة لسلطانهم ، مع بعض الاستثناءات القليلة جداً . كان بنو أيوب ، وأمراؤهم ، في الشام ، جملة من ضمن أولئك الحكام . وكان لهم مواقف استسلامية ، أو تهاونية ، وعدم مبالاة ، للمخطر الذي كان يطبق عليهم ، ويضيق قبضته حول أعناقهم ، يوماً بعد يوم ، حتى جاءت الساعة التي قضى فيها عليهم جميعاً ، واحداً بعد الآخر ، فقوض عروشهم ، التي أشبه بريشة في مهب الريح .

كان الملك الناصر يوسف من أولئك الأمراء ، لا بل كان كبيرهم ، وأقراهم ، وأكثرهم سعة في المال والجاه والملك ، ولقد التزم ، في تعامله مع المغول ، خطأ صائناً ، متهاوناً ، خطأ يدل على اللامبالاة ، حتى جاءه المغول ، وقبضوا عليه ، بعد أن دل عليه أحد أتباعه ، فوقع في معيبتهم ، وهو هائم على وجهه في البراري ، خائفاً يترقب .

لذلك ، فإن هذا البحث المتواضع يتطرق إلى علاقة الناصر يوسف ، أمير شخصية في أسرة البطل ، صلاح الدين الأيوبي ، مع المغول ، منذ بدأ خطرهم يظل برأسه على الشام ، وحتى نهاية الناصر ، ومقتله على يدي المغول ، وما صاحب ذلك من ملاسات .

الملك الناصر يوسف والمغول

المغول :

في أول النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد ، ولد طفل مغولي من أسرة فنية كانت لها المشيخة على بعض القبائل المغولية ؛ كان ذلك الطفل هو تيموجين بن يوسكاي بهادر ، والذي عرف في الأوساط التاريخية العالمية بـ جنكيز خان^(١١) . وعلى الرغم من الظروف العصيبة التي مر بها ذلك المولود في مرحلتى المراهقة والنسب ، إلا أنه في نهاية الأمر كتب له أن يصبح من أشهر القادة في تاريخ البشرية ، بغض النظر عن أعماله العدوانية ، وما ارتكبه مع صحفائه من أعمال وحشية ، فهذه طبيعة البشر ، ومثله مثل غيره ، ممن عاصره أو جاء بعده ، والتي مارلتنا نعيشها ، أو نشاهد صوراً لأعمال أكثر بشاعة ووحشية من تلك التي فعلها المغول^(١٢) .

بعد أن تعدى جنكيز خان مرحلتى الطفولة والنسب ، شاءت إرادة الله فيه أن يبدأ في تكوين ملك له ، ولأسرته من بعده ، فشرع في توحيد بعض القبائل المغولية القريبة منه . لذلك نجده وقد دخل في حروب طاحنة ، وتحالفات سياسية وعسكرية مع أمراء ومشايخ مختلف العشائر المغولية البدوية ، حتى استطاع في نهاية المطاف أن يصبح سيد منغوليا بدون منازع ، وأن يضع أساساً لأكبر امبراطورية عرفها تاريخ البشرية^(١٣) .

شرع بعد ذلك يتطلع بصره إلى تجاوز حدود وطنه ، الأصلي ، منغوليا ، إلى الشرق وإلى الغرب والجنوب . وما أن انتهى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، حتى أضحت مملكته تمتد من السفوح الشرقية لجبال الطاي غرباً إلى المحيط الهادي شرقاً ، ومن جنوب سيبيريا شمالاً حتى الجنوب من صحراء كوتني من الجنوب^(١٤) .

بعد توحيد جميع القبائل المغولية ، تقريباً ، تحت قيادته الشخصية ، شرع جنكيز خان في التخطيط لغزو الدول المجاورة ، فبدأ بدولة « التنكوت » في التبت ، فاستطاع إخضاعها لغزوه ، بعد حروب استمرت خلال السنوات الأولى من القرن السابع الهجري / ١٣ الميلادي^(١٥) . ثم نجده بعد ذلك يشرع في

أواخر هذا العقد في تنفيذ مشروعه الجريء ، وانعسكري المشهور ، ضد أراضي امبراطورية الصين الشمالية ، وبعد حروب طاحنة ، دامت لأكثر من خمس سنوات ، استطاع أن يقضى على امبراطورية الصين الشمالية ، بعد أن اقتحم المغول عاصمتها « بيكين » في شهر صفر من عام ٥٦١٢ هـ / يونيه (حزيران) ١٣١٥م^(٧). بعدها عاد بجوده ، وشرح في تجهيز قواته لشن هجومه ضد العالم الغربي من أراضي المغول ، فكانت أراضي المسلمين هي التي وقعت تحت ثقل وطأة تلك الحروب المدمرة ، حيث كانت دولة الخوارزم شاهيين هي المسيطرة على المشرق من العالم الإسلامي آنذاك . وخلال السنوات الأخيرة من العقد الثاني من القرن السابع للهجرة / ١٣ للميلاد ، استطاع المغول أن يصلوا إلى حدود إقليم العراق الشرقية ، حيث كانت الدولة العباسية ، وغيرها من الدويلات الإسلامية العديدة في المنطقة . وبذلك قوض جنكيز خان عرش الدولة الخوارزم شاهية وعاد إلى وطنه ، وتوفى في عام ٥٦٢٤ - ١٢٢٧م^(٨).

بناء على ما تقدم شرحه ، نجد أن الامبراطورية ، المغولية عشية ، وفاة مؤسسها كانت تمتد من النهر الأصفر في الصين والمحيط الهادي شرقاً ، إلى العراق العجمي غرباً ، ومن نهر السند وجبال الهملايا جنوباً إلى سيبيريا شمالاً . وما أن شارف النصف الأول من القرن المذكور على النهاية حتى وصل المغول في فتوحاتهم إلى قلب أوروبا ، وآسيا الصغرى في الغرب ، وتوغلوا في أراضي الصين جنوباً ، بعد حروب مريرة وطاحنة خلال فترة حكم الإمبراطور « اكساي » ، الذي خلف والده في الحكم^(٩). ثم أعقب وفاة « اكساي » فترة راکدة ، لم يتم المغول فيها بفتوحات ذات بال خلال فترة حكم ابنه وخليفته على العرش « كويرك خان »^(١٠). وما أن انتهت مشكلة الصراع الداخلي في البيت المغولي الحاكم ، حول أحقية ولاية العرش ، حتى شرع المغول ، كعادتهم ، بعد توليه خان جديد على العرش ، في تنفيذ مشروع جديد لفتوحاتهم ، ولحد حدود امبراطوريتهم لتشمل أراضي جديدة شرقاً وغرباً^(١١). لذلك ، فقد قامت حملتان كبيرتان ، أحدهما ضد أراضي الصين الجنوبية ،

بقيادة « قبلاى بن تولى بن جنكيز خان » والأخرى إلى الغرب ، بقيادة أخيه « هولكو » الذى استطاع أن يصل إلى أراضي الشام بحلول عام ١٢٥٧ هـ / ١٢٥٩ م ، بعد أن قوض قوة المغشاشين الامتاعيلية في إيران ، وقضى على خلافة العباسيين في بغداد^{١١}.

لذلك جاء « هولكو » على رأس حملة عسكرية يفتح بها المنطقة ، ويضمها إلى ممتلكات امبراطوريتهم . ولسوء حظ المسلمين كانت أوضاع حكام الدويلات الإسلامية وإماراتها في هذا الجزء من العالم الإسلامى عامة ، وبنى أيوب خاصة ، في غاية التفكك ، والانحلال ؛ والمهاترات السياسية والعسكرية فيما بينهم كانت على أشدها . كما كانت مواقفهم تجاه المغول الغزاة متباينة أشد التباين . فقد كان منهم الموالي والخاضع تحت نفوذهم منذ عشرات السنين ، مثل حكام : الموصل ، وفارس ، وكرمان ، والسلاجقة في آسيا الصغرى ؛ وبين معارض ، وقف في وجه المغول وحاربه حتى نال الشهادة ، مثل الملك الأيوبي ، محمد الكامل ، صاحب ميافارقين^{١٢} . ومنهم من كان خائفاً يترقب ، فهو مال في الظاهر ، ومعارض في الباطن ، أو لم تعرف له موقفاً لتأرجحه بين وبين ، مثل الملك الناصر يوسف ، صاحب الشام ، وكبير بنى أيوب ، موضوع بحثنا هذا .

بنو أيوب عشية الغزو المغولي :

عندما جاء المغول إلى منطقة الهلال الخصيب في أوائل النصف الثاني من القرن السابع الهجرى / ١٣ للميلاد ، كان أمراءها وحكامها ، بوجه عام ، وبنى أيوب خاصة ، في منتهى الانحلال وتشتت الشمل . والذى يبينا هنا الأمراء الأيوبيون في الشام والجزيرة عامة ، والأمير الأيوبي الملك الناصر يوسف خاصة ؛ فقد أضحي في آخر الأمر كبير أمراء هذه الأسرة ، وأكثرهم جمعا ، وأوسعهم أرضاً . ومما يدل على عدم وحدة البيت الأيوبي وجود العديد من الإمارات الصغيرة المنتشرة في أنحاء متفرقة من بلاد العراق والشام ، ويحكم كل إمارة منها أمير ، لا يكاد يدين بالولاء لأى حاكم أو أمير آخر أكبر منه ، إلا إذا

غزاه من هو أكثر قوة وجمعاً منه ، فإما أن تضم إمارته إلى أراضي ذلك الغازي الجديد ، وإما أن يخضع تحت سلطانه ، بعد أن ينعم عليه سيده الجديد بإبقاء ممتلكاته وأراضيه له ، وفوق ذلك كله جعله حراً طيقاً ، لأن الأغلبية منهم تال يعقل ، ويودع السجن فيظل فيه ما بقي حياً ، إلا لظروف جديدة تضرأ تؤدي إلى خلاصه ، كما سيرد معنا في ثانياً هذا البحث^(١٤٣).

لذلك نجد أن الحروب الأهلية بين أمراء بني أيوب لا تكاد تنقطع حتى وتبدأ من جديد ، وعلى أشد ما يكون ، وبشكل أو بآخر ، بين هذا الأمير أو ذاك . فكل واحد منهم كان يتحين الفرص للسيطرة على غيره من الأمراء الآخرين ، وإخضاع إماراتهم للموذه . لهذا كانت الأوضاع الداخلية غير آمنة ، ولو لفترة قصيرة ، لأي أمير من هؤلاء . فكان كل واحد يعيش عيشة الخوف من الغزو والذل . ولهذا لم تدم الإمارة لهذا أو ذاك لوقت طويل ، باستثناء الناصر يوسف ، موضوع بحثنا هذا^(١٤٤).

الناصر يوسف صاحب حلب :

عندما توفي الملك محمد بن غازي بن صلاح الدين الأيوبي (٦١٣ - ٦٣٤هـ / ١٢١٦ - ١٢٣٧م) جاء من بعده ، على ملك حلب وتوابعها ابنه الملك الناصر يوسف ، وهو ابن ست سنين ، تقريباً^(١٤٥) . فتولت جدته لأبيه ، يعاونها في ذلك كبار أمراء ومماليك أبيه ، شؤون الدولة بآية عن حفيدها^(١٤٦) . فخل أوضاع على ما هو عليه حتى وفاة تلك المرأة في عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م ، بعد ذلك نجد الناصر يوسف يتسلم مهام شؤون إمارته ، يساعده في ذلك الأمراء وكبار رجاله^(١٤٧).

أخذت قوة الناصر تزداد ، وأصماعة تتسع تبعاً ، لذلك فقد استطاع أن يوسع ممتلكاته على حساب جيرانه الأيوبيين الآخرين ، فأخضع دمشق في عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، وأخذ معها توابعها ، مثل بعلبك ، وعجلون ، وشيبي ، ثم أخذ النسيبة وبانياس ؛ وكان قبلها قد ضم حمص من أميرها الأشرف موسى ، وأخضع صاحب حماه لسلطانه ، ثم صفت له جميع أراضي

الشام بشكل أو بآخر ، وكان له في الشرق من الثرات حران ، والرها ،
والرقة ، ورأس العين وتوابعها ، فأضحى بذلك كبير بنى أيوب ، وأقوامهم
عشية انغزرو المغولى^(١٨).

لعل الناصر يوسف كان يسعى ، في سياسته هذه ، إلى توحيد أراضي
الشام ، ومحاولة بسط نفوذه على مصر ، ومن ثم يبدأ بعدها منازلة الصليبيين ،
وإزالة وجودهم من أرض الإسلام . وفوق ذلك كله ، مواجهة المد المغولى
الجارف ، الجارف ، الذى كان يطل برأسه كالتنين ، ليلتلع الأراضي الخبية
للمسلمين في العراق والشام ومصر . إن سياسة مثل هذه عمل جيد ، مثله في
ذلك مثل جده الأكبر صلاح الدين . ولكن أعمال الناصر وتصرفاته والسياسة
الخارجية واتجاهاته الدينية التى كان يسر عليها لا تدل على شيء من ذلك . فقد
مد يد الصداقة للمغول ، وهذا ما سراه في ثنايا هذا البحث ، وصداقته
وهدنته مع الصليبيين في المنطقة ، بدليل أنه لم يقم بأى عمل عسكري
ضدهم . فكل همه كان موجهاً ضد الأمراء من أسرته ، وبشكل شرس ، كما
سرد معنا بعض الأمثلة لذلك . وفوق ذلك كله عدم انتاج سياسة واضحة
لتحقيق هدف سام ، يخدم الإسلام والمسلمين .

على الرغم من أن الناصر أصبح هو الحاكم الأول في بلاد الشام ، إلا أن
سياسته لإعادة نفوذ الأسرة الأيوبية على سابق عهدها لم تفلح ، وذلك لأسباب
كثيرة لعل من أهمها قوة حكومة المماليك الجديدة فيها من جهة ، ولعدم وحدة
البيت الأيوبي خلف زعيمها من ناحية ثانية ، فرغم تكتل معظم الأمراء
الأيوبيين ، وتوحيد صفوفهم ، ربما لأول مرة منذ وفاة الملك محمد الكامل بن
العاقل ، وسيرهم ضد حكومة المماليك في مصر ، فقد منى بهزيمة على أيدي
المماليك في ذى القعدة ٦٤٨هـ / فبراير ، شباط عام ١٢٥١م . حيث انقلب
نصرهم إلى هزيمة نتيجة ، على ما يبدو ، لعدم الانضباطية العسكرية ،
والخبرة التنظيمية لإدارة المعركة ، فقتل بعضهم ، وأسر فريق منهم ، ولاذ
بالهرب ، ناج بجلده ، طائفة أخرى^(١٩).

بعد هذه المعركة استقل المماليك بمصر ، بينما انصرف الناصر يوسف إلى ذلك الأمر المهوود في أسرته ، وهو العودة إلى المهاترات السياسية ، والحروب المنهكة ، فيما بينهم ، فاستمرت تلك الأوضاع المرزية بينهم ، ليس فقط بعد سقوط بغداد و نهاية خلافة العباسيين بها ، بل وحتى الوقت الذي شرع هولاكو يعدّ لتدفعه فلانقضاء على الشام ، والسير منها إلى مصر .

وحس في هذا النقام أو أورد مثلاً أو مثالين على ما كان يقع بين الأيوبيين عشية مجيء المغول ، وتصفية الجميع على أيديهم . ففي سنة ١٢٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وعندما كان المغول وأعوانهم يقصرون مكان بغداد خاصة وأراضي العراق عامة ، ويهلكون فيها الحرث والنسل ، نجد الأمراء الأيوبيين ، بقيادة كبيرهم هذا ، يدخلون في معركة ثانية مع المماليك قرب غزة . فهزم الأيوبيون أيضاً . وفي السنة التالية ، وفي الوقت الذي كان المغول يدقون أبواب الشام بمحور الدمار وللإطاحة بهم ، دخل الناصر في حرب ضد أراضي أمير أبوي آخر ، هو المغيث فتح الدين عمر ، صاحب الكرك والشوبك ، فاستمر يحارب خصمه حتى ألجأه داخل قلعته ، فحاصره فيها حصاراً أشد ما يكون ، ولم يفتع عن ذلك إلا بعد أن تضرع إليه الناس وحتى النساء من أسرته هو^(١٢) .

هذه بدة مختصرة عن أوضاع بني أيوب المتردية ، بل المهزنة ، والتي كانت سبباً لزوال ملكهم على أيدي قوة تغزوهم ، فما بالك وقد كانت قوة المغول تسير في طريقها إليهم ، بعد أن أزاحت من الوجود امبراطوريات ، ودول كبرى . ومقابل ذلك ما كانت عليه امبراطورية المغول من القوة واتساع السلطان .

الاتصالات السياسية بين الناصر يوسف والمغول :

يرجع تاريخ العلاقات السياسية بين المغول وخانهم في « قراقروم » من ناحية وبين أمراء الأسرة الأيوبية ، ممثلة في الناصر ، من ناحية ثانية ، إلى التواء الأكار من عشر سنوات . وهنا تورد الروايات التاريخية ذات الصلة لتبصرة ، والمعاصرة للأحداث في هذا الشأن ، أن رسلاً كانت قد جاءت من حكام

الأقاليم الغربية إلى « قراقرم » ، لتقدم انتهى إلى الخان المغولي « كويوك ابن اكتاي » (٦٤٤ - ٥٦٤٦ / ١٢٤٦ - ١٢٤٨ م) والذي توج حديثاً خلفاً لوالده « اكتاي » (٦٣٧ - ٥٦٣٩ / ١٢٢٩ - ١٢٤١ م) . وقد كان من بين تلك الوفود وفد من صاحب حلب برئاسة أخيه ، وأن كل واحد جاء ومعه من التحف والهدايا ما يناسب بلاط الخان المغولي ، وقد أقيم لأعضاء تلك الوفود ما يقارب ألف خيمة من اللبود ، لانزاهم فيها طوال فترة إقامتهم^(٢٢) .

بعد أن انتهت تلك الوفود من مهامها السياسية . وشاركت في حفل التوقيع ، وقبل مغادرة كل وفد ، نجد أن الخان يصدر أوامره بإعطاء أعضاء الوفود المشاركين في ذلك الاحتفال ، مراسم ولوحات براءة « يرليغها وبزاهها » ، وكذلك فقد منحت للحكام الذين جاءت تلك الوفود ممثلة لهم^(٢٣) . إذا ، كان صاحب حلب ممن حظى بمرسوم خاني « يرليغ أو يارليغ » وكذلك بلوحة براءة « بيزا أو بايزا » من الخان المغولي ، فأرسلت تلك مع ممثلة . لذلك أصبح الناصر ، على الأقل من جهة النظر المغولية ، من أحد أتباع ورعايا الخان المغولي ، فهو تحت حمايته ، فلا أحد يستطيع التعدي أو التطاول عليه ، أو إلحاق الضرر به ، فهو تابع ، وأملاكه أملاكه ، للمغول ، ومواطنوه تحت الحماية المغولية . هكذا كان المغول ينظرون إلى أشياء من هذا القبيل ، كما سيرد معنا .

ومما يدل على أن صاحب حلب كان تابعاً للمغول رواية أوردها الجويني ، في معرض كلامه عن الأقاليم الغربية ، التي كانت تخضع إدارياً تحت نفوذ حاكم المغول الإداري في الغرب ، من أن الخان المغولي جعل كل تلك الولايات في الغرب تحت إدارة حاكمها هناك « ارغون آقا » بما فيها ولاية صاحب حلب ، وما يدخل تحت نفوذ ملكها من أراضي وأتباع ، من الأمراء الأيوبيين الخاضعين للملك الناصر^(٢٤) . إذا ، كان المغول يعتبرون الملك الناصر يوسف من أتباعهم ، والخاضعين لسلطانهم ، وكذلك بقية الأمراء الأيوبيين في الجزيرة والشام . أما ما يتعلق بوجهة نظر بني أيوب ، من الناحية الثانية ، فلا أستطيع الجزم في القول بأنهم كانوا يدينون للمغول بالولاء ، أو أنهم كانوا يعتبرون

أنفسهم تحت حكم المغول ، أو حمايتهم ، بأى شكل كان ، مباشر أو غيره . ومع ذلك ، فإننا نجد أنفسنا أمام مواقف معينة وواضحة كان يتخذها أمراء بني أيوب ، في تعاملهم مع المغول . فمن هذه المواقف مسألة وجود وفد يمثل الناصر لدى البلاط المغولى ، لثبته بالسلطة ، والاشتراك في حفل تتويج الخان الجديد ، وإرسال الهدايا والتحف ، الأمر الذى نتج عنه ، منح براءات الأمان ، وهوية التبعية المغولية ، كما ورد في الحاشية قبل السابقة .

إن الذى يظهر لنا هنا بأن الناصر قد أوفد من لدنه رسولا إلى مغوليا ، وذلك قبل وفاة « كويوك » سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ، وربما كان ذلك الرسول هو صاحب زين الدين الحافظي ، كما سيتضح ذلك من النص الذى أورده ابن العميد كما سيرد معنا بعد قليل^(٢٥١) . وما نستدل به على ذلك أيضاً رواية جاء بها رشيد الدين ، من أن ذلك الرسول جاء ومعه الهدايا والتحف ليقدمها إلى القاآن المغولى ، وقد حظى الرسول بالاعزاز والتكريم ، إضافة إلى ذلك فقد منح مرسوماً وبرائة . « كان سلطان حلب قد أرسل وزيره زين الدين الحافظي إلى حضرة القاآن بتحف وهدايا ملكية ، وبذلك أصبح مشتهراً ومعروفاً في البلاط ، فصدر له المرسوم والبراءة »^(٢٥٢) . ويؤيد روايتي كل من الحويني و رشيد الدين ما جاء في مصنف ابن العميد في هذا الخصوص بأن « الأمير شمس الدين لولو كان في حياته قد أرسل إلى القاآن الكبير ملك التتار هدايا كثيرة وتحف جلييلة وأحضر من عند القاآن إلى الملك الناصر ضمعا ونشانا يحملها في حياصته وهذا دليل الطاعة عندهم .. »^(٢٥٣) . ويضيف مؤرخنا هذا أن الحافظي رجع من مهمته تلك ، ووصل إلى الشام في عام ٦٤٩هـ/١٢٥٣م ، أى بعد مقتل شمس الدين لولو . وهنا يمكننا أن نستنتج أن الحافظي كان قد أرسل إلى « القاآن » قبل سنة ٦٤٩هـ/١٢٥٣م ، بأكثر من ستة أشهر ، أو ربما سنة . فقد أرسله قبل المسير من الشام على رأس جيش الناصر ضد المماليك في مصر ، والتي قادها لولو نفسه . فكانت المعركة في ذى القعدة من عام ٦٤٨هـ/فبراير (شباط) ١٢٥١م . هذه ناحية ، والناحية الثانية أن الحافظي قد أرسل إما قبل وفاة « كويوك » ، أو بعد وفاته ، أو أن

أخبار وفاته لم تصل إلى الشام بعد . فأرسل لتجديد العهد والولاء للمغول ؛ أو أن المحافظي قد أرسل إلى المرأة الوصية على العرش المغولي وهي أرملة الخان المتوفى « أنغول غايميش » التي أنيطت بها مهام إدارة الامبراطورية المغولية ، حتى تستكمل إجراءات الدعوة العامة لحضور الاجتماع الكبير الذي يحضره كافة الأمراء من سلالة جنكيز خان ، وكبار القادة والإداريين من كافة أنحاء الامبراطورية . وذلك للبت في اختيار شخص يخلف الخان المتوفى ، ويتم تنصيب آخر على العرش^(٢٧٦) .

إذا ، كانت الهدايا التي أرسلت مع المحافظي ، مرسلة في الأصل إما إلى « كويوك » ، وإما إلى أرملة ، فصادف وصوله حفل انتخاب ثم تنصيب الامبراطور المغولي « منكو » ، فقدم تلك الهدايا له ، وكأنها مرسلة في الأصل إليه . وما يدل على التبعية التي كان الناصر يدين لها للمغول ، نص أورده في هذا الخصوص أيضاً ابن العميد ، حيث قال فيه بأن الناصر كان يسير كل سنة بالهدايا والتحف إلى نائب « القاآن » في الجنوب الغربي من امبراطورية المغول « بلاد المعجم » بإيجونويان^(٢٧٨) .

بعد أن وصل « هولاكو » كمش ، فيما وراء النهر ، وهو في طريقه لتفديد حملة المغول الغربية ، أرسل وفوداً من عنده إلى الحكام التابعين للمغول في الأقطار الغربية للمساهمة ، في حملته تلك ، ضد قلاع الاسماعيليين في إيران ، فلا بد إذاً أن يكون الناصر ممن تلقى شيعاً من ذلك الأمر^(٢٧٩) .

على الرغم من أن الناصر ، على ما يبدو لنا ، قد تلطم رسالة من « هولاكو » كأي واحد من الحكام الآخرين في المنطقة ، إلا أنه لم يجب عليها في الحال ، كغيره ممن استجاب له ، أو أنه قد أجاب ، ولم نعثر على ذلك . إلا أن الاحتمال الأول هو الأقوى ، لأمرين هامين ، أولهما : أن الناصر أصبح ، في السنوات الأولى من النصف الثاني للقرن السابع الهجري/ ١٣ لنيلاذ ، مشعولاً ومهنماً جداً في توسيع أراضيه ، والحفاظ على ما تحت يده ، وفي نزاع مستمر مع جيرانه من أسرته ومع المماليك في مصر ، كما مر معنا ذلك ؛ وثانيهما : رواية جاء بها ابن العميد في هذا الخصوص ، حيث يقول بأن انناصر

قد تغافل عن « هولاکو » « ... ولم يسم إليه شيئاً بالجملة لأمر إرادة الله تعالى فشق ذلك على هولاًزون (هولاکو) وكان يقول في كل وقت الملك الناصر ، كان يسم لبايجوا التحف والهدايا وهو غلامنا ونحن منذ وصلنا ما سمر لنا رسولاً ولا هدية وبقي هذا في نفسه »^(٢٠). فإذا أخذنا بالرأى الأخير ، فعمل هناك عدة أسباب منعت الناصر من الرد على رسالة هولاکو منها :

١ - لأن عدداً كبيراً من الأكراد والتركمان ، الشهرزورية ، ويقدر عددهم بموالى ثلاثة آلاف فارس ، جاءوا ، ومعهم نساؤهم وأموالهم ، هارين من مقصلة المغول ، ولجأوا سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م إلى بلاد الشام ، فالتحقوا بخدمة الناصر واستخدمهم في جيشه ليكثر بهم جمعه ضد منافسيه ، صاحب الكرك والمماليك ؛ لهذا فقد أصبحوا قوة لا يستهان بها ، فخافهم الناصر ، فلم يستطع أن يرسل رسولاً أو هدايا إلى هولاکو ، كعادته التي كان يتبعها مع بايجونويان .

٢ - انشغال الناصر ، وكما قلنا ذلك قبل قليل ، بالحروب ، والاستعداد لأخرى ، عهلى تخورين ، الأول ضد دولة المماليك في مصر ، فتارة يستعد لأخذها ، لاستعادة سيطرة الأيوبيين عليها ، وكرة يتأهب للدفاع عن أراضيه ضدهم ؛ والمحور الثاني ضد الملك المغيث ، صاحب الكرك والشوبك ، الذي أصبح يمثل خطراً كبيراً ، ويهدده من وقت لآخر ، وخاصة بعد أن انضمت قوة كبيرة معه ، من المماليك ، ثم لحق بهم أيضاً من كان قد التحق بالناصر ، الأكراد والتركمان^(٢١).

٣ - كون الناصر قد حصل على الحصانة المغولية « اليارليغ واليزا » ، والتي منحه إياها « القا آن منكو » نفسه ، فهذه كغيلة بحمايته من أى ظلم قد يتعرض له على أيدي المغول أو « هولاکو » ، الذي يلتزم بقوانين المغول في هذا الشأن أشد التزام .

يذكر ابن العميد أنه بعد أن جاءت الأخبار إلى الناصر ، بسقوط بغداد في أيدي المغول وأعوانهم ، خاف خوفاً عظيماً ، وخشى مغبة تغافلته وإهماله رسالة هولاکو ، فأرسل في الحال وقدأ من عنده ، برئاسة ابنه الملك العزيز محمد ،

يرافقه زين الدين الحافظي وآخرون ، ومعهم هدايا جمّة ونحف وسّادم جيلة ، وهم يعملون رسالة اعتذار له عن عدم تمكنه من الحجى . فقال « هولاءكو » : « ولم لا جاء الملك الناصر إلينا ؟ » فاعتذروا بأنه قبالة العدو وبلادهم وسط بلاد الفرنج فما يمكنه أن يتركها ويحضر وقد سير ولده بنوب عنه في الخدمة فأظهر قبول العذر وباطنه بخلاف ذلك^{١٣٦} . أما ابن العبري ورشيد الدين فيذكران بأن هذا الوفد أرسله الناصر إلى هولاءكو بعد أن جاءته رسالة من هذا القائد المغولي . وقد أورد كلا المؤرخين مضمون الرسالة ، ولكنها طويلة عند ابن العبري ، وقصيرة ، ومختصرة عن رشيد الدين . وقد آثرت أن أوردتها كما جاءت لدى الأول ، فهو معاصر ، ومن شاهد الأحداث بعينه ، وشارك مع المغول ، وخدم تحت رفاة كاتب الرسالة نفسه ، نصير الدين الطوسي . يقول ابن العبري : « ... أرسل هولاءكو أيلجيه (رسولاً) إلى الناصر صاحب حلب برسالة يقول فيها : « يعلم الملك الناصر أننا نزلنا بغداد في سنة ست وخمسين وستائة وفتحناها بسيف الله تعالى وأحضرنا مالكمها وسأناه مستثنين فلم يجب لسؤالنا ففذلك استوجب منا العذاب كما قال في قرآنكم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وصان المال . قال الدهر به إلى ما آل . واستبدل النفوس النفيسة . بتقوش معدنية خسيصة . وكان ذلك ظاهراً قوله تعالى : ﴿ فوجلوا ما عملوا حاضراً . لأننا قد بلغنا بقوة الله الإرادة ﴾ . ونحن بمعونة الله تعالى في الزيادة . ولا شك أن نحن جند الله في ضه خلقنا وسلطنا على من حل عليه غضبه . فيمكن لكم في ما مضى معتبر . وبها ذكرناه وقتناه مزدجر . فالحصون بين أيدينا لا تمنع . والعساكر للقائنا لا تضر ولا تنفع . ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا يسمع . فاتعظوا بغيركم . وسلموا إلينا أموركم . قبل أن ينكشف الغطاء ويجل عليكم الخطأ . فنحن لا نرحم من شكنا . ولا نرق لمن بكنا . قد أحرينا البلاد . وأتينا العباد . وأتينا الأولاد . وتركنا في الأرض الفساد . فعليكم بالهرب . وعلينا بالطلب . فما لكم من سيوفنا خلاص ولا من سهامنا مناص . فخيولنا سوابق . وسهامنا خوارق . وسيوفنا صواعق . وعقولنا كالجبال . وعددنا كالرمال . فمن طلب منا الأمان سلم . ومن طلب الحرب ندم . فإن أنتم أطعتم أمرنا وقهلم شرطنا

لكم ملكا وعليكم ما علينا . وإن أنتم خالفتم أمرنا وفي غيركم نغاديتهم فلا
 تلومون ووموا أنفسكم . فإنه عليكم يا ظالمين فهبوا للبلايا جناباً . ولترزأوا
 أنياباً . فقد أعذر من أنف . وأنصف من حذر . لأنكم أكلتم الحرام وختم
 بالإيمان . وأظهرتم البدع واستحسنتم الفسق بالنصيبان . فابشروا بالذل
 والهوان . فاليوم تحدون ما كنتم تعلمون . سيعبد الذين ظلموا أى منقلب
 يقيمون . فقد ثبت عندكم أننا كفره . وثبت عندنا أنكم فجرة . وسلطنا
 عليكم من بيده الأمور مقدره . والأحكام مدبره . فعزيزكم عندنا ذليل .
 وغيركم ندينا فقير . ونحن مانكون الأرض شرقاً وغرباً . وأصحاب الأموال
 سلباً ونهباً . وأخذنا كل سفينة غصبا . فميروا بعقولكم طرق الصواب قبل أن
 نضرم الكفرة نارها . وترمى بشرارها . فلا تبقى منكم باقية . وتبقى الأرض
 منكم خالية . فقد أيقظناكم . حين راسلناكم . فسارعوا إلينا برد الجواب بته .
 قبل أن يأتيكم العذاب بغتة . وأنتم لا تعلمون»^(٤٣٣).

ولهذا السب نجد الملك الناصر يرسل ولده وبقية الوفد ليتوبوا عنه عند
 « هولاءكو » ، وذلك بعد أن رحل عن بغداد ، فأصبح الأمير الأيوبي الصغير
 ومرافقه ، على ما يبدو لنا ، من جملة وفود الحكام المسلمين الذين قدموا على
 « هولاءكو » ، ليعلنوا ولاءهم وطاعتهم له ، وربما ليثبتونه بفتح بغداد
 وانتصاره على خيفتها^(٤٣٤) . وقد ظل هذا الوفد لدى « هولاءكو » ، حسب
 رواية ابن العبري ، من أوائل الشتاء إلى الربيع ، ربما كان ذلك عام ٦٥٦ هـ -
 ١٢٥٨/هـ ١٢٥٩ م ، ولم يعد أفراداه إلى الناصر ، انذى لم يمنعه من
 اندهاب شخصياً سوى خوفه من كيار أمراته ، إلا في ربيع ذلك العام^(٤٣٥) .
 ولذلك أرسل الناصر ابنه ، حسب رواية الخليل ، العزيز محمداً إلى هولاءكو في
 سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م بتحف وهدايا ليصانعه بذلك^(٤٣٦) .

كان رشيد الدين عم تطرق لموقف الناصر من المغول بشكل عام حيث
 يقول : « ... وعندما وصل هولاءكو إلى الأراضى الإيرانية كان سلطان حلب
 يظهر له في بعض الأحيان الولاء والطاعة في الخفاء ، لذلك السبب أضحى
 متهاً لدى سلاطين الشام ، الذين ساروا ضده ، فخافهم ولاذ بالفرار إلى

حضرة هولانكو خان ، لذلك فقد عقد (يعنى هولانكو) العزم على فتح
حلباً^(٤٣).

على الرغم من انطباق هذه الرواية على موقف الناصر العام من المغول ، إلا
أن رشيد الدين قد وقع ، على ما يظهر لي في نس وخلط ، ونحتاج روايته إلى
إيضاح . لأن الناصر لم يذهب بنفسه ، وعن طواعية واختيار ، إلى هولانكو ،
كما يبدو من هذه الرواية . فمن المعروف أنه أخذ أسيراً ، إلى « هولانكو » كما
سنرى فيما بعد من هذا البحث . أما مسألة أن ذهب الناصر إلى « هولانكو »
قد قوى من عزمه على قصد حلب وفتحها ، فإن ذلك الأمر لم يكن يحتاج إلى
شيء من ذلك ، لأن أوامر « القاآن » واضحة ، حيث تقضى على
« هولانكو » بالأب يتوقف في مسيرته إلا عند حدود مصر الغربية . ومعروف
أي هي حدود مصر هذه . « فهولانكو » والمغول لم يكن الأمر يحتاج منهم إلى
تحريض محرض ، أو تلبية دعوة داع . وقد ناقض مؤرخنا نفسه في رواية ،
أوردها في مصنفه هذا ، حول الناصر . ومنكلم عن ذلك في حينه ، من هذا
البحث^(٤٤) . أما أن الناصر أصبح متهماً عند بنى أيوب بأنه موالياً للمغول ،
فهذه إشارة من رشيد الدين إلى شيء معروف ؛ فالناصر ، وكما سبق ذكره ،
موان للمغول حتى قبل أن يصل « هولانكو » إلى المنطقة . والسؤال هنا : ما
الذى منع الناصر من الذهاب بنفسه إلى الأمير المغولي عندما طلب منه ذلك ؟
يبدو لنا أن الذى معه أمور كثيرة منها : خوفه من أسرته ، وأنه كبير بنى
أيوب ، وما سلحته من اللوم ، وأن مكاته ، سياسياً وعسكرياً ستعرض إلى
الخطر ، وربما إلى الدمار ، من الداخل ومن الخارج . ففى الداخل ، نجد أن
مكاته لم تكن في وضع جيد ، إذ أن علاقته بكبار الأمراء من غلمانة وغسان
أبيه ، بدأت تضعف ، وخاصة بعد أن أخذ كبار مماليك أبيه يظهرون عدم
الولاء التام ، بسبب ما يعانونه من قلة ذات اليد ، ومن المطعم والملبس . لذلك
بحده يضطر إلى سماع شكواهم ويزيد في عدتهم حتى طابت نفوسهم . ومع
ذلك لم يكن مطمئناً إلى ولائهم ، فأخذ عنهم اليهود الوثائق ، حتى زال شيء
من نفسه من الخلق . كذلك نجد أن قوة التركمان والأكراد الشهيرة ،

الذين رحب بهم ، وأنعم عليهم بالخنع والأعطيات ، بنونونه ، ويدهبون إلى صاحب الكرك والشوبك ، خصم الناصر . ومن ناحية ثالثة كان وضع الناصر من الخارج لا يسمح له بالخروج عن مملكته ، حتى لا يخرج عنه ، إلى إحدى القوى الشيطة به من الخارج فالفلسيون ، جيرانه ، رغم أنه لم يثبت أن أيًا من الطرفين قد تعدى على الآخر ، ومع ذلك كان يخشاهم الناصر . وهناك قوة المماليك ، التي أخذت تنطع ببصرها إلى الشرق ، لتتوسع على حساب أملاك الأيوبيين ، أسيادهم فيما مضى ، وهناك المنافس الأول على رئاسة وزعامة بني أيوب ، الملك المغيث ، الذي كان يهدده من وقت إلى آخر ، وخاصة بعد أن تقوى بدهاب المماليك إليه ، وكذلك انخراط الأكراد والتركمان تحت لوائه ، بعد أن ترك الجميع الخدمة في جيش الناصر ، لذلك نجده يضطر إلى التجهيز والخروج للقائهم ، دفاعاً عن ممتلكاته وذلك في أوائل عام ١٢٥٧/١٢٥٩ م ، عندما خرج المغيث ليغزو دمشق ، وليأخذها من الناصر ، فكتب له النصر ، فضعف المغيث بعد الهزيمة وانفضت من حوئه تلك القوى التي لبته واستعز بها^{١٣٩} . أما المماليك في مصر ، فإنه عندما انضم إليه الأمراء الهاربون من المعز أيك التركاني ، وعلى رأسهم الظاهر بيبرس ، فأرسل إلى المعز يطلب منهم إعادة أراضي كانت قد أخذت منه على طريق الساحل ، فخاف المعز وأعادها إليه . وهنا خشى الناصر أنه لو ذهب إلى « هولانكو » لربما استغل الأعداء المماليك فرصة خروجه ، وهاجموا ممتلكاته ، وربما فقدوا جميعاً^{١٤٠} . إضافة إلى مذكراته ، فإن موقف الناصر من محمد الكامل ، صاحب ميافارقين ، كان لا يسمح له بالذهاب شخصياً ، إذ أنه ، وفي هذا الوقت بالذات ، سيرض نفسه لنوم وترجيع الناس . فقد كان محمد الكامل يجالد المغول المحاصرين له منذ أكثر من سنة ، وكان قبل ذلك قد جاء شخصياً إلى الناصر ، وطلب منه الاتحاد ضد المغول ، إلا أنه رفض ذلك ، بل وسفهه ، ولم يكثرث به . فعاد محمد هذا إلى ميافارقين ، ولم يستسلم للمغول ، وقتلهم عامين كاملين تقريباً ، حتى استشهد ، رحمه الله^{١٤١} .

مما سبق يتضح لنا أن الناصر يوسف كان موالياً للمغول ، ويدين لهم بالطاعة . لذلك رأى أن يترتب في مقر ملكه ، حتى يقترب « هولاكو » منها ، فيخرج إليه ، فيكون بذلك قد حظى برضى الأمير المغول ، بما سبق فعله ، عندما أرسل ابنه وأمراهه ، ومعهم الهدايا وخضاب الاعتذار ، كما سبق ذكره ، وضمن بقاءه على كرسي مملكته ، حتى ولو كان تحت ظل المغول وحكمهم المباشر ، لأن ذلك ، في نظره أفضل من الخروج إلى « هولاكو » وهو ما يزال في العراق ، وأذربيجان ، فيأقئ أعداؤه لمهاجمة ممتلكاته ، فيستولون عليها ، ويحربون أراضي آباءه وأجداده من تحت يديه . لهذه الأسباب جميعها رأى الناصر ، كما يبدو لنا ، أن يوفد ابنه ، حتى لا يظهر أنه قد تجاهل رسالة « هولاكو » ، فيغضبه من ناحية ، ولم يذهب إليه هو بنفسه ، خوف أسرته ، ومذمة المسلمين ، وخشية تعرض أراضيه للغزو الخارجي من ناحية ثانية .

ومع هذا وذاك فإنه لم يخف على الأمير المغول موقف الناصر الغامض . فالمغول لا يؤمنون إلا بوحدة من اثنين أما الخضوع المطلق للمغول ، والاستجابة لداعيهم وتنفيذ أوامره ، وإما المساواة ، وهذا عندهم يعنى العداء الصريح ، فهم قوم لا يؤمنون بأنصاف الحلول . لهذا ، نجد « هولاكو » يعيد ابن الناصر ، ومن معه ، ويعملهم رسالة لإبلاغها إليه . وهذا ما يظهر من أسلوب رسالته إلى الأمير الأيوبي . وهنا يذكر رشيد الدين بأن « هولاكو » سمح لرسول الناصر بالعودة إلى الشام ، وذلك في ١٩ ربيع الأول ، وحملهم رسالة إليه^(١٢) . وقد أشارت المصادر ، ذات النصلة المباشرة ، إلى عودة وفد الناصر وهم يحملون رسالة غير التي ذكرها مؤرخنا هذا ، والذي أورد رواية غير دقيقة في هذا الشأن ، كما يبدو لنا . فهذه الرسالة التي جاء بها رشيد الدين ، قد حملت إلى الناصر قبل أن يكون هناك مراسلة بين الطرفين ، بعد وصول هولاكو إلى العراق . وكذلك فإن من نتائج هذه الرسالة كانت استجابة الناصر ، حيث أرسل ولده والوفد المرافق له إلى الأمير المغول . ويظهر لنا أن هذه ربما كانت إشارة من رشيد الدين إلى عودة الوفد ، ومعهم

رسالة أخرى غير تلك التي جاءت في العام المنصرم ، إلى الناصر ، كنتيجة لها ، لأن المصادر الأخرى ذات العلاقة تذكر شيئاً من هذا ، كما سنرى هنا .

ففي هذا الشأن ، تحدثنا بعض الروايات تمك ، أن رسل الملك الناصر عادوا إليه في شعبان من عام ٦٥٧هـ/آب ، أغسطس ، سنة ١٢٥٩م ، وأنهم ذكروا للناصر أن « هولاكو » قد قبل الهدية ، وطابت بها نفسه ، وزال ما كان عنده^(١٣) . أما ابن العبري ، فإنه يذكر في هذا الخصوص أن الملك العزيز قال لأبيه ، بعد عودته : « قد قال ملك الأرض (يعني هولاكو) : نحن للملك الناصر طلبنا لا لولده فالآن إن كان قلبه صحيحاً معنا يميء إلينا وإلا فنحن نمشي إليه »^(١٤) . أما صاحب مصنف « الخوادث الجامعة .. » فيقول بأن « هولاكو » قال لابن الناصر : « .. ، نحن طلبنا أهلك وحيث لم يحضر نسر إليه »^(١٥) .

كما سبق ذكره ، يتضح لنا بجلاء أكثر أن الملك الناصر يوسف كان في الغالب موالياً للمغول ، ويدين لهم بالطاعة . فرأى ، على ما يظهر لنا ، أن يترتب في مقر ملكه ، حتى تنضح الرؤيا ، ويقترّب « هولاكو » من أراضي الشام ، فيخرج إليه ، فيكون بذلك قد حاز رضاه ، بما سبق وفعله ، عندما أرسل ولده وأمراه ، وهم يحمنون الهدايا كما سبق ذكر ذلك ، وضمن ممتلكاته من أي هجوم قد يقوم به أحد أعدائه ، الصليبيون ، والمماليك ، أو المغيبي ، وبذلك يحوز على البقاء في كرسى مملكته ، تحت سلطة المغول . ولكن حدث في النهاية أمر من الناصر ، على غير ما ظهر منه ، طوال السنوات العشر الماضية . فقد تغير موقفه من موال للمغول ، كما رأينا ، إلى مجابهة ومقاتلة ضدهم . فما هو السبب وراء ذلك التغير المفاجيء ، والتغير المتوقع ، وقد رفض قبل ذلك أن يتعاون مع محمد الكامل ، صاحب ميافارقين ، ضد العدو الغازي ؟

هولاكو يستعد لغزو الشام ومصر ، وبدأهما بمهاجمة ممتلكات الناصر :

بعد أن قوض المغول خلافة بنى العباس ، وقُتل آخر خلفائهم ، انتهى « هولاكو » بذلك من انجاز المرحلة الثانية من المهام التي أوكلت إليه من المغول المجتمعين في « قراقروم » في سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م . لذلك كان لابد لجنود المغول وخيولهم من فترة طويلة للراحة ، كما هي عادتهم ، بعد كل غزوة كبيرة ، يقومون بها ، فالرجال متعبون ، ويحتاجون لوقت ليس بالقصير للراحة ، وروايتهم ، والحيل منها خاصة ، تحتاج لوقت حتى تستعيد فيه قوتها ونشاطها ، فتسمن وتستعد للحملة القادمة .

بناء على ذلك ، نجد أن « هولاكو » يقضى ، مع جنده ، وقتاً ليس بالقليل ، قبل أن يستأنف العمل ، لإتمام المرحلة الثالثة والأخيرة من مهام حملة المغول الغربية . فعلى الرغم من أنه كان قد رحل من بغداد في منتصف شهر صفر عام ٦٥٦هـ/ العشر الأخير من شهر شباط ، فبراير سنة ١٢٥٨م ، إلا أن القوات المغولية لم تعبر نهر الفرات ، لتبدأ غزوها لبلاد الشام إلا في الأيام الأخيرة من شهر رمضان عام ٦٥٧هـ/أيلول ، سبتمبر سنة ١٢٥٩م . ومعنى ذلك أن المغول قضوا قرابة سنة ونصف وهم يسرحون ويمرحون في أراضي أقاليم العراق العجمي ، وأذربيجان ، وأرمينيا ، والجزيرة ، دون أي عمل رسمي يقومون به ، حيث لم نجد في مصادرنا التاريخية التي تنسى لنا الرجوع إليها ، أية رواية ، عن أي نشاط عسكري قامت به القوات المغولية على نطاق كبير ، طوال هذه الفترة . ورغم ذلك فإن « هولاكو » لم يقض السنة ونصف ، وهو جالس دون عمل يخدم المرحلة التالية لحملة . فقد استغل فترة راحة جنده وكراعه في إرسال الوفود ، واستقبال السفراء ، كل ذلك بغرض إنجاح حملته الأخيرة ، وتذليل كل ما من شأنه أن يقف حائلاً أمام المغول ، أو ما قد يعرقل أو يؤخر النصر الحاسم والسريع ، الذي كان الهدف الذي يسعى إليه كل مغولي . ولعل رسل الملك الناصر ، الآنف ذكرهم ، كانوا ممن ذهب إليه في هذه الفترة ، وكانوا من جهة من استقبلهم « هولاكو » في أذربيجان^(٦٦) .

بعد أن استكمل « هولاكو » كافة استعداداته ، بدأ أول مرحلة من هجمته ضد أراضي الشام . فهاجمت جحافل المغول ديار بكر وريجة ، فأخضعت ما تبقى من إقليم الجزيرة بالعراق ، حيث أخذوا دهنس ، ونصيبين ، وحران ، من أملاك الناصر يوسف ، ثم ماروا إلى البيرة ، وأخذوا قلعتها ، وأخرجوا منها أحد أمراء بني أيوب ، الذي كان مسجوناً فيها منذ تسع سنين ، فاستعان به المغول في فتح أراضي الشام^(٤٧) . وهنا يذكر ابن العميد بأنه عندما سمع الناصر يوسف بأن المغول قد أخذوا الأجزاء الشرقية من مملكته ، شاور كبار دولته ، ومحايلك أبيه في الأمر . وفي النهاية استقر الرأي على التصدي للمغول ، ومناجزتهم بالسيف ، فجمع جموعه ، وهرج بهم ، وخيم خارج مدينة دمشق ، إلى الشمال منها في قرية بَرَزَة . وفجأة اكتشف الناصر مؤامرة ، حيكت بليل على يد الكبار من قاداته ، ومن تمحس لملاقاة المغول ، لقتله ؛ لذلك هرب المتآمرون ، بعد معرفة نيا اكتشاف مخططاتهم . بعدها تشتت قوات الناصر ، وانحل نظامها ، قبل أن يشتبك مع العدو ، بل وقبل أن يسمع بعبورهم نهر الفرات إلى بلاد الشام ، وطمع فيها القاضي والداني ؛ فأصبح خائفاً يترقب ، مشرداً ، حتى وقع في مصيدة حاكها له أحد أبنائه الخلفيين ، فأخذ إلى القائد المغولي ، كما سيرد معنا^(٤٨) .

وهنا تساءل : لماذا استقر رأي الناصر على قتال المغول ، وكان يحطب ودهم ، كما ذكرنا أعلاه ، وكان قد أضع فرصة ثمينة في هذا الشأن ، عندما عرض عليه محمد الكامل ، صاحب ميافارقين ، بلتم الشغل ، والأمان من العدو المشترك ، الذي جاء ليقضي على الصغير والكبير ، ويدمر كل من يراه ويابسة ؟

لو رجعنا إلى العلاقات السياسية بينه وبين المغول ، طوأن العشر السابق الماضية ، لقلنا بأن الناصر لم يكن في حقيقة الأمر يسوى مواجبة المغول بسلامة ومناظرتهم في ميدان القتال ، لعلمه التام بحججه ؛ إضافة إلى أسباب أخرى جداً ، لعل من بينها :

١ - عدم وحدة البيت الأيوبي ، فقد شارك هو شخصياً في تفكك هذا البيت بدليل :

(أ) رفض التعاون مع صاحب ميافارقين ضد المغول .
(ب) كان قد هاجم أراضي أمراءهم الباقين في الشام ، حتى استصفى ممتلكاتهم فيها ، وسجنهم ، وشتت شملهم^(٤٩) .

٢ - ضعفه من الناحية العسكرية ، فعلى الرغم من أنه كان يمتلك قوة كبيرة مكونة من المماليك ، والأكراد ، والتركانيين ، إلا أن وجودهم بهذه التركيبة كان عامل ضعف في حد ذاته ، وذلك للأسباب التالية :

(أ) أن الأكراد والتركانيين جاءوا أصلاً إلى الشام هاربين من مقصلة « هولاکو » ، بعد أن دمرهم قائده « كديو قانويان » ودمر قلاعهم ، وعلى رأسها « درتنگ »^(٥٠) . فكون الناصر آواهم ، وفوق ذلك استخدمهم في جيشه ، يجعل المغول أكثر حقداً عليه ، وأشدّ تصميمًا ، لئذ لمّا في وسعهم لتدميرهم ، وتدمير من يخدمون ، فهم طلبة « هولاکو » ، بل وطلبة أخيه « القانان مكو » . فكانت مسألة تدمير النور والأكراد والتركانيين من أول الواجبات التي أنيطت بالمغول وخانهم بها « هولاکو »^(٥١) . لذلك ، فقد هربوا ، ونجوا بجلودهم من المغول ، فكانوا سيقومون بالهرب من أمامهم أيضاً لو قابل الناصر المغول وهم من جملة جنده .

(ب) التنافس ، بل والتنافس ، الشديدين بين قوة الأكراد والنور من جهة مع الأتراك المماليك من جهة ثانية . فكل فئة تكيد للأخرى ، وتحسدها على أية مكانة قد تصل إليها لخدمة هذا السيد أو ذاك . فكل طائفة تكيد للفرقة الأخرى ، وتعمل على تفكيكها واستحصائها . لذلك نجد الأتراك المماليك يعملون في التخطيط لتقتلهم ، بل وقتل الناصر نفسه ، وتولييه من يرون من بينهم^(٥٢) .

(ج) عدم استعداد الأكراد للمقاتلة في صفوف جيش الناصر ، ضد المغول ، نلسب التوارد في الفقرة قبل السابقة ، إضافة إلى أنهم سبق وخانوه ، وذهبوا إلى خصمه ، الملك المغيث ، صاحب

الكرك والشوبك ، وقاتلوا معه ضد سيدهم الحالى ، رغم إنعاماته واعطيته لهم . أما ما قاله أحد قادتهم ، وهو شخص يدعى بدر الدين الحضرى ، من أنه لم يعارض ويفارق الناصر إلى المغيث إلا لحين الأول عن ملاقة المغول ، فإن هذا القول مردود عليه ، لأنه لو كان يود مجابهة المغول ، لما هرب في الأصل من أمامهم ، إضافة إلى أن المماليك تأمروا على قتلهم لأنهم قد عقدوا العزم بالأى بقفوا مع المماليك ليقاتلوا المغول ، وهذا ما أورده الأتراك كسب لتأمرهم عليهم وعلى الناصر .

(د) لم تكن طائفة المماليك راضية عن سيدها الجديد ، الناصر ، على الأقل لسببين :

السبب الأول : أن الناصر لم يلب رغبتهم ، ويسر معهم ضد حكومة المماليك الآخرين في مصر ، فقد هربوا من هناك خوفاً من صاحبها ، الملك المعز ايك التركمانى ، الذى أراد تصفيتهم ، لتأمرهم عليه . لذلك لجأوا هاربين منه إلى الناصر ، فأطعموه في ملك مصر ، ليس حباً في الناصر ، وولاء له ، بل للانتقام من ملكها المعز . وكان الناصر يعلم ذلك . إضافة إلى أنه كان يعلم بأن المماليك البحرية لا يمكن أن يشبوا معه ، كما زعموا ، ضد المغول ، وأكبر دليل على ذلك أنهم سبق وهجروه ، وذهبوا إلى صاحب الكرك والشوبك ، وقاتلوا معه ضد الناصر . أما عودتهم إليه مرة ثانية ، فإن ذلك لم يكن عن طواعية منهم واختيار ، فقد كانت مسألة : مايبهم إلى الناصر أحد شروط عقد صلح الناصر مع المغيث ، بعد هزيمة الأخير في الاشتباك ، انوارد ذكره أعلاه ، في أوائل سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م ، على عقبه أربعا . « فأخذهم الناصر ، تحت الحوطة إلى دمشق ، وسير البحرية إلى الحصون واعتقلهم بها .. »^(٥٣).

السبب الثانى : اشتراك غيرهم معهم (من الأكراد والتركمان) في جيش الناصر ، وربما أنهم قد أحصوا بأن سيدهم أخذ يفضلهم

على الممالك . لذلك نجدهم يحكموا مؤامرة للفتك بالناصر
وأخيه ، والأكراد والتركمان جميعاً .

٣ - لم يكن مماليكه ولا ممالك أبيه يكونون له الولاء والطاعة ، وخاصة الكبار
منهم . وأكبر دليل على ذلك امتناعهم عن أداء اليمين له بالطاعة ، ولم
يوافقوا على أداء اليمين إلا بعد أن أعطاهم أموالاً ، وأنعم عليهم انعامات
وافرة^(٥٤) .

٤ - أن الناصر لم يوافق على إعداد الجند والخروج بهم خارج دمشق إلا
للطاعة العمياء التي كان يولها لأمراته ، من مماليكه ، وممالك أبيه .
« وكان لا يخالفهم في شيء البتة لاعتقاده عليهم .. »^(٥٥) . كما كان الناصر
يعلم ذلك منهم ، فلو خالفهم في عدم ملاقاته المغول لتذرعوا بذلك حجة
عليه ، وأطاحوا به ، وولوا غيره . ولذلك عندما جاء الجند وأعاد
مشاورة مماليكه وممالك أبيه ، أشاروا في النهاية بعدم ملاقاته المغول ،
وبعدما « ... تقلت العساكر وتصرمت وقلت الحرمة ، وطمع كل
أحد ولم يبق عند الملك الناصر والأمراء إلا قوم قلائل ... »^(٥٦) . لهذه
الأسباب جميعها لم يكن الناصر يود ، بادئ ذي بدء ، مناصبة المغول
العداء .

بعد أن أخذ ديسر ، ونصيبين ، والرها ، واستباح سروج ، وبعد أن ترك
فصيلتين من جنده لأخذ ميا فارقين وماردين ، عبر « هولاكو » نهر الفرات
بقواته على ثلاثة جسور ، قامت كل فرقة من أجنحتها الثلاثة بالعبور من على
جر معين لها ، إذ مد جسر بالقرب من ملطية ، عبرت عليه قوات الميمنة ،
ونصب آخر عند قرقيسيا ، حيث عبرت قوات الميسرة ، وبنى ثالث عند
البيرة ، عبرت عليه قوات القلب ، والتي كان « هولاكو » على رأسها ،
وذلك في رمضان ٦٥٧هـ / سبتمبر ، أيلول ١٢٥٩م . وهناك ارتكب مجزرة
هائلة عند منبج . ثم تقدم باتجاه مدينة حلب . وبعد مناوشة خافتة مع نائب
الناصر عليها ، الملك المعظم توران شاه ، انهزم ، وهرب صرب حلب وتحصن
في قلعتها .

وصلت قوات المغول حلب ، فحاصروها من جهات أربع^(٥٧) . وبعد حصار دام حوالي عشرة أيام استسلمت المدينة في محرم ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م ، وبعدها اقتحم المغول وأعوانهم قلعتها ، بعد حصارها قرابة أربعين يوماً . ثم استسلمت مدينتا حمص وحماه طواعية ، فسلمنا من النهب ونجبا أهلها من القتل . أما مدينة دمشق ، فقد تشاور ذوو الرأي وكبار رجالاتها ، فتوصلوا جميعاً إلى أنه يجب إعلان الطاعة للمغول ، والدخول تحت سلطانهم لئلا يلحقهم ما حل بأهل حلب ، التي تذكر الروايات التاريخية بأن من قتل فيها فاق من قتل في بغداد ، على أيدي المغول وأعوانهم . لذلك فقد استقبل أهل المدينة المغول ، وقدموا مفاتيحها ؛ فدخلوا المدينة ، وسلمت وسلم أهلها^(٥٨) .

نهاية الناصر يوسف على أيدي المغول :

كان الناصر قد غادر مدينة حلب ، وذهب إلى أختها دمشق ، بعد أن جاءته أخبار تفيد بأن المغول قد أخذوا ممتلكاته في شرق الفرات . وبعد أن تفرقت عنه أكراده ومماليكه من البحرية وغيرهم ، وعندما بلغته أنباء سقوط حلب ، مدينته ومدينة آبائه وأجداده ، واقتحام المغول لقلعتها ، التي كان يظن بأنها لا تؤخذ أبداً مهما طال حصارها ، عقد العزم على الفرار من دمشق ؛ فهجر الشام وذهب في طريقه باتجاه مملكة الممالك في مصر ، وذلك في منتصف شهر صفر عام ٦٥٨هـ / يناير ، كانون الثاني ١٢٦٠م . حول هذه المسألة يحدثنا ابن العيـد ، الذي كان مصاحباً للناصر ومجموعة من كتابه وخواصه ، بأن سيدهم ترك مدينة دمشق « ... ، خالية من العساكر وأهلها على الأسوار يخالفهم ويشتموهم^(٥٩) ويدعون عليهم ويقولون تركتمونا طعم للتار (المغول) لا كتب الله عليكم سلامة^(٦٠) . ثم يردف هذا المؤرخ ، الذي كان ينقل لنا ما شاهده بعينه ، قائلاً بأن الناصر وأهله وحرابه ومن صاحبه في تلك الرحلة « وجدوا من المشاق والشدائد في الطرقات ما يعجز الوصف عنه ، وسببه أن خروجهم كان في شدة البرد وقوته ووقعت الأمطار الكثيرة وكثرت الأوحال وتكسرت الجمال من الزلزل والأوحال وتعتكت النسوان بين

الفلاحين وتخطف أهل البلاد من قماشهم وما كان معهم وعليهم شيئاً كثيراً وجرت عليهم صعوبات كثيرة عظيمة»^(١١١).

وصل الناصر إلى حلب ، ومنها ذهب إلى غزة ، ثم خرج من الأخيرة إلى العريش ، وهو لم يستقر على رأى معين بعد ، فقد كان يفكر في بداية رحلته من دمشق بأنه سيذهب إلى مصر ، ولكنه خاف ملكها ، المظفر قطز ، فأرسل إليها زوجته ، وبعض أفراد أسرته^(١١٢) . أما هو فإنه غادر العريش إلى الرمل ، ومعه بعض أقاربه وأمرائه . وقد كان أرسل إلى قطز يطلبه العون والاتحاد ضد العدو الغازي ، إلا أن عدم ذهابه إلى مصر ، وخروجه إلى الرمل جعل قطز يظن بأن تلك حركة من الناصر يريد الاحتيال والدخول إلى مصر خدعة وخطسة . فشرع قطز في مكاتبة أمراء الناصر وخواصه المرافقين ، ووعدهم بالوعود الحسنة ، فهجروه وذهبوا إلى قطز ؛ ولم يبق معه سوى قلة لا يتجاوز عددهم الخمسة^(١١٣).

توجه الناصر ، ومن معه ، إلى قطيا ، ومنها ساروا إلى الشوبك ، ومن ثم اتجهوا إلى الكرك ، من مملكة المغيث ، الذي سأله القدوم إليه في قلعتها ، إلا أن الناصر خافه ، فرفض قبول دعوة الملك المغيث ، فغادر الكرك إلى البلقاء . ولقد مكث في أطراف هاتيك الربوع ، حتى فاجأته قوة من المغول ، وهو على بركة زيرا ، إحدى قرى البلقاء فأحاطوا به وبمن معه ، واعتقلوه ، فأخذوهم إلى قائد المغول العسكري في الشام ، كدبوقانويان ، الذي أرسله إلى « هولانكو » ومعه أخوه الملك الظاهر . ولقد كان الأخير استسلم إلى المغول ، ونزل من قلعته صرخد ، فأبغاه القائد المغولي معه حتى جرى بأخيه الناصر ، فأرسلها ومن معها إلى سيدة قرب بحيرة وآن . وكان الذي دل على الناصر أحد غلمانته وأتباعه ، وهو شخص يدعى حسين الكردي ، حيث ذهب خلسة إلى « كدبوقا » وطلبه اقطاعاً ليدله على خير سيده ، فأعطى بغيته ، فقاد جماعة من المغول إلى مكان الناصر ، وكان الكردي قد حسن له المضى إلى المغول ، فاعتز بقوله ، فقدم إلى « كدبوقا » فأرسل من قبض عليه ، وكان حسين الكردي طبردار الناصر^(١١٤).

كان « هولاکو » قد رجع من حلب ، وعبر الفرات ، ثم ذهب إلى إقلمیة
أرمینیا ، حيث جرى بالناصر إليه ، وهو مقيم على السواحل الشرقية من بحیرة
وآن^(١٩٥) . وحول هذه المسألة تذكر الروایات ذات الصلة أن « هولاکو »
استقبل الناصر أحسن استقبال ، وفرح به ، وأحسن إليه ، وكان يجلسه
بالقرب منه على كرسي ، ورتب له راتباً كبيراً ، ووعد به كل خير وجميل ،
وأنه يعيد إليه ممتلكاته جميعها^(١٩٦) .

كان هذا التصرف من « هولاکو » ، تجاه الناصر ورفاقه ، أمراً مألوفاً ،
وحيلة معروفة منه ؛ فقد فعل الشيء عينه مع كل من الخليفة العباسي
المستعصم ، ومع ركن الدين خورشاه^(١٩٧) . فلقد كان ما يزال أمام « هولاکو »
بقية من أراضي الشام وفلسطين لم تفتح ، وفوق ذلك مملكة وأراضي مصر ،
فلا بد من الاحسان إلى هذا الأمير الأيوبي ، بل هو أكبر أفراد أسرته ، ليسهل
به إخضاع ما تبقى من هاتيك الأوصقاع ، التي مر بفتحها ، حتى يصل إلى
حدود مصر الغربية . ونحن نعلم أن « هولاکو » قد ندم على التسرع في قتل
الملك محمد الكامل ، صاحب ميافارقين أشد الندم ، فقد كان يريد الإبقاء عليه
لنفس الغرض . لذلك كان مقدم الناصر إليه مكسباً ، وورقة رابحة ، ليكسب
به أخذ مصر بسهولة ويسر ، ويساوم به حكومة المماليك فيها^(١٩٨) . إلا أن هذا
الأمير المغولي وقع في عين الخطأ السابق مرة أخرى . فعلى الرغم من تجربته مع
محمد الكامل وقتله أباه ، وندمه على ذلك ، نجده أيضاً يأمر بشكل متسرع ،
وهر في حدة غضبه ، بقتل الناصر ، وكافة أصحابه ، وأتباعه ، ومن معه ،
وذلك في أواخر شهر شوال من عام ٦٥٨هـ / منتصف أكتوبر ، تشرين الأول
سنة ١٢٦٠م ، عندما جاءت أنباء هزيمة كتيبه العسكرية التي تركها في
الشام ، برئاسة « كديوقانويان » ، وعاد هو إلى الشرق على أثر علمه بوفاة
أخيه « القان »^(١٩٩) .

وفي نظري أن « هولاکو » قد ارتكب عملاً لا يدل على حنكة سياسية ،
ولا نظرة عسكرية بعيدة المدى ؛ وهذا بعكس ما عرف به واشتهر عنه وعن
آبائه وأجداده ، وأهل بيته في هذا الميدان . فلم تقده تجربة مقتل صاحب

ميا فارقين ، الذى كان بإمكانه استخدام محمد الكامل فى تسهيل فتح حلب ،
والتي كلفت المغول الشيء الكثير قبل فتحها ، ثم إن الإبقاء على محمد الكامل
جياً لدى المغول ، وبجىء بعض رجالات بنى أيوب الآخرين ، وانضمامهم إلى
صفوف المغول ، كما فعل الملك السعيد بن العزيز ، صاحب بانياس والأشرف
موسى ، صاحب حمص ، واستلام الملك الظاهر أئشى الناصر يوسف ،
وغيرهم ، كل هؤلاء كان بإمكان « هولاكو » أن يجعلهم على رأس جيش
يسير بهم ضد المماليك فى مصر ، بعد أن يطعمهم فى ملك مصر ، وإعادة
أسرتهم الأيوبية كسابق عهدها ، تحكم الشام ومصر ، حتى وإن كان ذلك
تحت ظل المغول ، وهذه السياسة سوف توفر على المغول الشيء الكثير ،
سياً وعسكرياً . ولا أعتقد أن الأمراء الأيوبيين أولئك كانوا معارضون ،
بل على العكس ، سيجدون ذلك غاية ما يتناه كل واحد منهم ، لأسباب
كثيرة لعل منها :

١ - حبهم فى استعادة ما فقدوه من ممتلكات فى أراضى الشام ، فتعاد لكل
واحد منهم إمارته الصغيرة على الأقل .

٢ - تشوقهم الشديد لأن تعيد الأسرة الأيوبية ، كسابق مجدها ، نفوذها على
مصر ، حتى وإن كان ذلك تحت ظل حكومة وثنية ، فلربما يأتى ذلك
اليوم فيصبحون أقوياء فيستقلون عنهم ، ويصبح لهم الأمر والشأن ، أو
بعضهم .

٣ - حب الانتقام من حكومة المماليك فى مصر لأنها :

(أ) قامت بقتل الأمراء من بنى أيوب ، وهم الحكام وأصحاب الملك
فى مصر ، وعلى رأسهم الملك المعظم توران شاه بن الصالح
أيوب ، والصالح إسماعيل ، وغيرهما من أسرتهم الأيوبية^(١٧) .

(ب) اقتطاعهم لأراضى وملك مصر ، من تحت النفوذ الأيوبي ،
والاستقلال بها ، تحت حكم أفراد كان أشخاصها مماليكاً وخداماً
للملوك وأمراء بنى أيوب .

(ج) حب الانتقام من المماليك ، لما كان بين الطرفين من حروب ،
ومعارك ، منذ انفصل المماليك واستقلوا بحكم القطر المصرى ،

بعد مقتل توران شاه ، وكان النصر فيها حليف المماليك .
 ٤ سوف ينصر الأيوبيون ، ومعهم المغول ، على المماليك ، لما عرف عن
 المغول من الناحية العسكرية ، وشهرتهم في هذا الميدان ، ثم أن أهالي
 مصر والشام سوف ينحاز منهم أعداد كبيرة تتعاطف مع الأيوبيين ،
 وهم حكامهم السابقين ، أما المماليك ، فهم مقتصروا الحكم من
 أسيادهم .

إن أمورا عسكرية ، وسياسية غاية في الأهمية والخطورة مثل هذه ، قد
 فالت على « هولاکو » ، ساعة غضبه ، وحزنه الشديدین بمجرد سماعه بهزيمة
 كنية من جنده ، ومقتل أعذب جندها ، وقادتها العسكريين ، وعلى رأسهم
 « كديرقانويان » نفسه . لذلك كان لتصرعه ، في اتخاذ قراره الأحمق ذلك
 نتائج وعواقب سياسية وعسكرية سيئة على مستقبل فتوحات المغول للأراضي
 الواقعة إلى الغرب من سمر القرات . فلم تكن هزيمة المغول في عين جالوت
 وحدها السبب ، بل ربما لم تكن أي سبب ، في تعثر ، ونهاية زحف المغول إلى
 الغرب من ماء القرات . فهناك أسباب كثيرة تتعلق بوفاة الخان المغولي ، ثم
 الخرب الأهلية ، التي تلت وفاته لتنافس الأمراء على العرش المغولي ، الأمر
 الذي أوجد كل اهتمام « هولاکو » ؛ تاهيك عن مسألة مقتل أولئك الأمراء ،
 فساهم قتلهم في ضياع ورقة رابحة في يد « هولاکو » ساعة غضبه ، فحصل
 من المماليك أناسا جاعوا للانتقام لقتلهم ، ومقتل آلاف البشر من المسلمين في
 الشام ومصرين . فجعل الأهالي هناك ينسبون كرون المماليك مقتصين لعروش
 بنى أيوب ، وهم خدمهم وعبيدهم ، وينتفون حولهم .

أما ما يتعلق بخادث مقتل الناصر ومن معه ، فتحدثنا المصادر التاريخية ،
 ذات الصلة المباشرة ، أن « هولاکو » ، بعد سماعه بهزيمة جنده ، ومقتل
 قائده ، في عين جالوت ، نشاءم ، وغضب ، فأمر في الحال بقتل الناصر ،
 ومن معه ؛ ورحل من على شواطئ بحيرة وآن ، في إقليم أرمينيا ، باتجاه تبريز
 في أذربيجان . أخذ الناصر ، وأخوه الظاهر ، والصلاح إسماعيل ، وجميع من
 كان معهم ، إلى جبال سمناس ، فذبخوا واحداً بعد الآخر ، ولم ينج من القتل

سوى الملك العزيز محمد ابن الناصر يوسف ، حيث شفعت فيه « توفوز خاتون » زوجة « هولاکو » ، فأرسل لى مراغة ، مع من أرسل من أولاد الخلفاء والملوك ، وكان من بينهم مبارك شاه بن الخليفة المستعصم ، وقد شفعت فيه نفس المرأة ، عندما قتل المغول والده واخوته ، وكافة أسرته ، بعد سقوط بغداد^(٣١) .

أما صورة الخلال ، التى قتل بها الناصر فقد أوردها ابن العبرى ، عن رجل شاهد عيان ، كان ممن يخدم الناصر ، ومن حكم عليه بالإعدام أيضاً ، ولم ينجه من الإعدام سوى تقوله بأنه منجم ، وأنه يعرف فى علم السماء ، والكواكب ، تركه المغول ، وأرسلوه إلى « هولاکو » ، فأصبح من الناس الذين انخرطوا فى سلك الخدمة ، تحت إدارة نصير الدين الطرمى ، لى عمل الرصد فى مراغة ، ومنهم ابن العبرى وغيره كثيرون ، يقول ابن العبرى فى هذا الخصوص : « فغضب هولاکو لذلك (لمقتل كذبوقا وهزيمة جنده لى عين جالوت) وتقدم بقتل الملك الناصر وقتل أخيه الملك الظاهر وجميع من معهم . ولم يخلص منهم غير محى الدين المرقى^(٣٢) . بسبب أنه كان يقول إننى رجل أعرف بعلم السماء والكواكب والتنجيم ولى كلام أقوله لملك الأرض (بنى هولاکو) . قال محى الدين المذكور لما اجتمعنا به فى مدينة مراغة . اننى لما قلت لهم هذا الكلام أعتدوني وأحضرونى بين يدى هولاکو فتقدم أن يسلمنى إلى خواجا نصير الدين . وحكى لنا ما جرى للملك الناصر قال : كنت فى خدمته يوم الأربعاء عشرين شوال وهو يسألن عن مولده إذ وصل أمير من المغول ومعه خمسين فارساً . فخرج الملك الناصر من الخيمة والتقاء وعرض عليه النزول . فامتنع قائلاً : هولاکو سيرنى ويقول : هذا اليوم لنا فرحة وقد عملنا دعوة وحضر الأمراء كلهم فتحضر أنت وأخوك وأولادك للأمر الذى لك عندنا . فجمع الملك الناصر جماعته مقاربة عشرين لفرأ وركبوا وساروا صحبة ذلك الأمير . وبعد ساعة وصل أيضاً عشرون فارساً آخر وقالوا : يحضر الجماعة كلهم ولا يبقى لى التحميم غير الفراشين والمالك الصغار والطباخين والغلمان . وبقى الجماعة والحيلة والكتاب يحضرون فى الدعوة .

(قال) فأخذونا إلى مواضع أودية عميقة بين حجارة عالية وترتنا عن الخيل فاحتاط كل واحد منهم بواحد منا وكفونا . فمما عاينت ذلك بقيت أقول بصوت عالٍ : إنني رجل منجم وأعرف بحركات الكواكب وممى كلام أقونه في خدمة السلطان ملك الأرض . فأخذوني وأعدوني وراءهم مع جملة أتباعهم وشرعوا بقتل الجماعة ولم يخلص منهم غير ولدي الملك الناصر فاستأسروهما هناك^(١٧٣) . ثم ركبوا وعادوا إلى البيوت التي للملك الناصر ونهبوها وقتلوا باقي الجماعة التي تخلفت هناك . ثم عرضوا الأمر على هولاكو وأنا صرت في خدمة خواجا نصير الدين في الرصد بمراغة وابنا الملك الناصر في خدمته^(١٧٤) .

وهكذا انتهت حياة كبير بنى أيوب ، وأقواهم ، وأكثرهم سعة في المال والجاه والوطن ، على أيدي المغول ، مذبحاً كما تذبح الشاة ، بعد أن تهاون ، بل تقاعس عن قتالهم أيام كانوا يعيدون عن أراضيهم وهم في العراق ، فقام برد محمد الكامل مكسور الخاطر من عنده ، وهو يدعو إلى الاتحاد والتضامن والجد في قتال العدو الغازي ، فما كان من الناصر إلا أن استخف برأيه وسفهه . كما كان الناصر ، على ما يبدو لي ، هو المسؤول عن تفكك بني أيوب ، وصراعهم المقيت ، الذي طال مداه فيما بين أمراء هذه الأسرة ، ثم حروبه مع المنابك . فهل جنى بنو أيوب من تفككهم ومهاتراتهم السياسية ، وقتل وسجن بعضهم بعضاً إلا القتل والتشريد ، والنذل والمهانة ، وانحمار على المحارم ، وفوق ذلك كنه روال الملك ، والنعمة . فوالله إنه : « لا جماعة من اختلف » . و « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » صدق الله العظيم .

- (١) ولد تيموجين في عام ١١٥٥/٥٥٤٩م في مكان يعرف بـ « ديلون بولدا في » على الهري السفلى لنهر « آونون » . لمعلومات أوفر في هذا الموضوع ، انظر : رشيد الدين فضل الله العمري ، جامع التواريخ ، تحقيق بهمن كرمي ، طهران ، ١٣٣٨ هـ . ش ، ج١/ص ٢٣٣ ، بناكتي ، فخر الدين أبو سليمان ، تاريخ بناكتي ، تحقيق د. جعفر شعار ، طهران ، ١٣٤٨ هـ ، ش ، ص ٣٦٢ . كذلك انظر الحواشي رقم ١ في ص ٥٧ ورقم ٢ ، ٣ في ص ٥٨ من كتابنا سقوط الدولة العباسية ، بيروت ، ١٤٠١ هـ . أما ما يتعلق بمعنى جنكيز خان ، فقد شرحنا ذلك في كتابنا آف الذكر في ص.ص ٧٥ - ٧٦ ولمعلومات أوفر في ذلك راجع حواشي ص ٧٦ .
- (٢) لمعلومات عن مراحل طفولة وشباب جنكيز خان راجع رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج١ ص.ص ٣٣ ، ٢٤٠ ، ٣٣٦ مجهول المؤلف ، تاريخ المغول السرى ، الترجمة الانجليزية ، ارثروولى ، لندن ، ١٩٦٣م ، ص ٢٢٦ ، الطبعة الفارسية ، « تاريخ سرى مغولان » ، ترجمة د. شيرويني بيلى ، طهران ١٣٥٠ هـ . ش ، ص.ص ٢٤ - ٢٥ . كذلك كتابنا سقوط الدولة العباسية ، ص.ص ٥٩ - وبعدها .
- (٣) في أواخر القرن السابع الهجرى/١٣ للميلاد ، كانت امبراطورية المغول تمتد من المحيط الهادى وجزر اليابان شرقاً ، ومن الهند الصينية الى الجنوب الشرقى الى جبال الألباش وبحر البلطيق وآسيا الصغرى ونهر الفرات غرباً ، ومن سيبريا شمالاً الى جبال المعلايا ونهر السند والبحر العربى جنوباً .
- (٤) لقد درسنا مراحل توحيد قبائل المغول ، وجهود جنكيز خان ، في كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ص.ص ٦١ إلى ص ١٠٦ . لذلك فإن أى معلومات تتعلق بهذا الشأن سيجدها القارىء الكريم في مصادر الكتاب المذكور ، والمنزه عنها في حواشئ تلك الصفحات .
- (٥) كانت حروب جنكيز خان ضد امبراطورية « التتكون » أو « هسي هسيا » قد استمرت في خلال السنوات : ١٢٠٤/٥٦٠١ ، ١٢٠٦/٥٦٠٣ ، ١٢٠٩ - ١٢١٠م . لمعلومات أولى انظر : رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج١/ص.ص ١٠٢ - ١٠٥ ، ٢٠٦ - ٦٠٨ كذلك Martin, H.D. The Mongol Wars With Hsi-Hsia, (1205 - 1227) JRAS, 1942. pp 192 - 228, Saunders, J.J.

The History of the Mongol Conquests, London, 1971, p 53; Fox, E., Genghis Khan, London, 1963, p 143; Walker, C.C. Jenghiz Khan, London 1939, p.p. 39 - 44.

(٦) ما يتعلق بغروب جنكيز خان ضد أراضي الامبراطورية الصينية الشمالية « جين » راجع : رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج١/ ٣٢٠ - ٣٣١ ، كذلك المراجع الانجليزية التالية :

Douglas, R.K. The life of Jenghiz Khan, translated from the chinese contemporary chroniclers, London, 1877, pp: 60 - 75; Vladimirtsov, B.Ya. The life of Chingis - Khan, translated from the Russian by Prince D.S. Mirsky, London, 1930, pp: 93 - 100

انظر الترجمة العربية التي قمت بها ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م ، ص.ص : ١٣٦ - ١٤٨ ؛ Martin, M.D. The Rise of Chingis Khan and his Conquests of North China, London, 1950, pp: 170 - 171; Lamb, H., The March of the Barbarians, London, 1941, pp: 59 - 60; Philips, E.D., The Mongols, London, 1969, pp: 53 - 58; Prawdin, M., The Mongol Empire, it's Rise and legacy, London, 1941, pp: 116 - 123; Saunders, The History of the Mongol Conquests.

(٧) لمعلومات تفصيلية عن ظروف وتاريخ مقتل أو وفاة جنكيز خان والمصادر المتعلقة بذلك ، وذات الصلة المباشرة ، راجع كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ص.ص ١٣٦ - ١٤٠ وما ورد في حواشي هاتيك الصفحات من مصادر حول هذا الموضوع .

(٨) لقد فصل المؤرخ الفارسي المسلم ، عطا ملك الجويني ، في كتابه الموسوم بـ « تاريخ جهانكشاي » أي تاريخ فاتح العالم ، تحقيق الأستاذ المرحوم محمد بن عبد الوهاب الفوزيني ، طبع برلن ، بولندا ، سنوات ١٣٢٩ ، ١٣٣٤ ، ١٣٥٥هـ/١٩١١ ، ١٩١٦ ، ١٩٣٧م ج١ ، ص.ص ١٤١ - ١٤٩ في هذا الموضوع . راجع كذلك رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج١/ ص.ص ٤٥٢ - ٤٥٤ ثم كتابنا سقوط الدولة العباسية ، ص.ص ١٤٤ - ١٤٥ وحواشي هذه الصفحات ، وقد حكم « اكناي » من عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م إلى عام ٦٣٩هـ/١٢٤١م . لمعلومات عن فتوحات المغول في عهده ، راجع كتابنا الأنف ذكره ،

ص.ص: ١٤٦ - ١٥٦ ، وما ورد في تلك الصفحات من مصادر مباشرة ،
• بلغات مختلفة ذات علاقة .

(٩) حكمه « كوكوك خان » من عام ١٢٤٤هـ/١٢٤٦م حتى وفاته في
١٢٤٦هـ/١٢٤٦م . راجع لجويس ، جهانكشاي ، ج١/ص ٢١٥ ، كدث
الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب المهام بعنوان :

The History of the World Conqueror, by: prof. J.A. Boyle,
Manchester University Press, Manchester, 1958, Vol. 1/ pp: 261F
كدث رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج١ص ٥٧١ ، والترجمة الإنجليزية لكدث
بعنوان :

The Successors of Genghis Khan, by: Prof. J.A. Boyle, New York,
1971, p: 185.

إذا لم يتوفر هذان المصدران فراجع كتابنا سقوط الدولة العباسية ص.ص ١٥٧
١٥٩ .

(١٠) كل ما يتعلق بالنصرع الداخل ، بين أحفاد « جنكيز خان » حول الأحقية في
ولاية العرش ، راجع مصادرنا الواردة في كتابنا سقوط الدولة العباسية ، من
صفحة ١٦٠ إلى صفحة ١٦٣ ، وما قبل في هاتيك المصادر في هذا الشأن ،
وبخاصة في جامع لتواريخ رشيد الدين ، وجهانكشاي ، لنجويني .

(١١) لقد فصنا في كتابنا آف الذكر ، حول تصفية وانهاء أمر الخشاشين الإسماعيلية في
إيران ، وكذلك سقوط الخلافة العباسية ، في الصفحات من ١٦٧ وبعدها ،
قللمزيد حاول أن تراجع مصادر مادتنا في ذلك الكتاب ، فلا أرى داعياً لسردها
للقارئ الجليل هنا .

(١٢) انضم مع « هولوكو » حكام مسنون ، كيدر الدين لؤلؤ ، وحكام كرمان ،
وفارس ، وآسيا الصغرى ، ضد مسلمي العراق . راجع ذلك في الفصل الخامس
من كتابنا سقوط الدولة العباسية . أما ما يتعلق بصاحب ميافارقين محمد الكامل ،
فقد بحثنا موضوعه ، وكيفية قتاله المغول في بحث سينشر قريباً في مجلة دنرة المنك
عبد العزيز تحت عنوان : « بطولة وفداء في ميافارقين » .

(١٣) كان يحكم في حصص كيفاً وقنعة المهيم ، الواقعتان في ديار بكر ، الملك الموحد ابن
توران شاه ، ولي ميافارقين محمد الكامل ، وفي حجة المنصور بان المنظر ، وفي
حصص الأشرف ابن المنصور ، بتركوه ثم أخذت منه وسلم عوض عنها تل ياشر
والرحبة وتندر ، وفي هانيس والصبيبة المنك السعيد حسن بن عبد العزيز عثمان بن

العادل ، وفي الكرك والشوبك الناصر داود بن المعظم عيسى ، ثم أخذت منه إلى الصالح أيوب ، وبعدها إلى فتح الدين عمر ، وفي صهيون وبرزية وبلاطفس مظفر الدين عثمان بن منكورس ، أما الملك الناصر يوسف ، موضوع بحثنا هذا ، فكان يحكم حلب ، ثم أخذ بعدها دمشق ، وضم فيما بعد بعلبك ، وعجلون ، وشببس وغيرها ، لمعلومات عن مواقع هذه الأماكن ، راجع المعجم الجغرافي ، لياقوت الحموي ، حسب حرف كل موقع ، كذلك راجع الكتب التالية عن الحكام المذكورين أعلاه ، أهر شامة ، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل ، « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » المعروف بـ « الدليل على الروضتين » بيروت ١٩٧٤ م . ص.ص ٢٠١ وبعدها ؛ أبو الغداء ، عماد الدين إسماعيل ، المختصر في أخبار البشر ، بيروت ، غير معروف سنة الطبع ، الجزء الثالث ، في صفحات متفرقة (١٦٥ - ٢٢١٣ ؛ ابن تغري بردي ، أبو المحاسن يوسف ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م ج٧/ص ١٥ على سبيل المثال ، وغيره هذه المصادر المتعلقة بتاريخ بني أيوب في الشام . انظر كذلك الحاشية رقم ٤٧ ، ورقم ٤٩ من هذا البحث ، لمعرفة أمثلة فقط على معاملة بني أيوب بعضهم للبعض الآخر .

(١٤) لمعلومات عن الحروب الأهلية بين أمراء بني أيوب ، راجع : ابن العميد ، المكين جرجس ، أخبار الأيوبيين ، ص.ص ١٤٨ وبعدها ؛ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ، المنسوب لكمال الدين عبد الرزاق بن القوطي ، تحقيق مصطفى جواد ، بغداد ، ١٣٥١هـ/١٩٣٢م ، ص.ص ٢٠١ على سبيل المثال ؛ مبسط ابن الجوزي ، مرآة الرمان في تاريخ الأعيان ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٢م ، ص.ص ٧٠٨ وبعدها ؛ شمس الدين ، أحمد بن محمد الذهبي ، العبر في خبر من غير ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٩م ، ج٥/ص ١٥٢ ، ١٦٤ ، ١٧١ ، ١٧٣ وبعدها ؛ ابن كثير ، أبو الغداء الحافظ ، البداية والنهاية ، بيروت ، ١٩٦٦م ، ج١٣/١٤٨ وبعدها ، ١٧٩ وبعدها ٢١٥ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٦/ص.ص ٣٠٣ وبعدها . ثم تتبع حوادث الستين بعد وفاة محمد الكامل ابن العادل ؛ المقرئ ، كتاب السلوك ، ٢/١ ، ص ٢٧٥ وبعدها .

(١٥) ولد الناصر يوسف في رمضان عام ٦٢٧هـ/أغسطس ١٢٣٠م ، في قلعة حلب ، انظر : ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ١٤٣ ؛ بو شامة ، تراجم ، ص.

٢١٢ : ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق : د. حسنين ربيع ، دار الكتب بالقاهرة ، ١٩٧٢ ، ج٤ ، ص ٢٨٣ ؛ ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، ١٩٧١ م ، ج٤/ص ١٠ ؛ ابن شاذان ، محمد بن شاذان الكلبى ، غوات الوفيات ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، ١٩٧٤ م ، ج٤/ص ٣٦١ ، الخليل ، أحمد بن إبراهيم ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، دار الحرية ، العراق ١٩٧٨ م ، ص ٤٠٨ كذلك حاشية رقم ٢٠٦ من نفس الكتاب هذا .

(١٦) هي ضيقة خاتون بنت العادل ، وقد ظلت تدير مملكة حفيدتها حتى توفيت ، وكان يعاينها أمراء كثيرون يتصدر فائستهم الأمير شمس الدين لؤلؤ الأرمنى (وقيل الأرميني) ، والأكرام ابن التفتلى ، وعز الدين الخليل ، والطواشي جمال الدولة ، وأقبال الخاتوني . انظر ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧/ص ٢١ ؛ ابن إبراهيم الخليل ، شفاء القلوب ، ص ٤٠٨ ، لمعلومات عن وائده العزيز (٦٠٩ - ٥٦٣ هـ) انظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧٠٣ ؛ أبو شامة ، تراجم ، ص ١٦٥ ؛ الذهبى ، العبر ، ج٥ ص ١٤١ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، ج٣/ص ١٥٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢/ص ١٤٥ - ١٤٦ ؛ ابن العماد ، شذرات ، ج٥/ص ١٦٨ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٦/ص ٢٩٧ .

(١٧) كان على رأسهم أنابكة شمس الدين لؤلؤ ، (وقيل لؤلؤ ، ولالا) ابن عبد الله الأرميني فكان الناصر لا يخالف له أمراً ، وظل كذلك حتى قتل على يد المساليت في الواقعة الحربية التي قادها وهو على رأس جيش سيده ضد المساليت ليأخذ منهم مصر . كما سيورد معنا في ثنايا البحث هذا . لمعلومات إضافية عنه انظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ص ٧٨٣ - ٧٨٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧/ص ٢١ ؛ ابن العماد ، أبو الفلاح ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج٥/٢٩٩ ، انظر الحاشية رقم ٢٦ من هذا البحث .

(١٨) « وقد زاد ملكه على ملك أبيه وجده ، فإنه ملك حلب ، وحران والرها والرقعة وراس العين وما مع ذلك وملك حمص ودمشق وبعلبك والأغوار والساحل إلى غزة .. » . انظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ٧٧٩ - ٧٨٠ ؛ أبو شامة ، تراجم ص ١٨٦ ؛ راجع أيضاً وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج٤/ص ١٠ ؛ ابن شاذان ، غوات . ج٤/ص ٣٦١ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، ج٣/ص ١٧١ - ٢١٢ ؛ الخليل ، شفاء القلوب ، ص ٤١١ - ٤١٣ - ٤٢١ .

(١٩) كان اللقاء في مكان اسمه الكراخ قريباً من الخشي في الرمل ، انظر المكتبي جرجس ، أبحار الأيوبيين ، ص ١٦٢ . ويقول أبو شامة أنها كانت على مكان يعرف بـ « سموط » بين الخشي والعاسية ، تراجع ، ١٨٥ - ١٨٦ . انظر سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص.ص ٧٨٠ - ٧٨١ ؛ الذهبي ، العبر ، ج٥/ص.ص ١٩٧ - ١٩٨ ؛ المقرئ ، السلوك ، ٢/١ ص.ص ٣٧٢ - ٣٨٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٧/ص.ص ٧ - ١٠ .

(٢٠) كانت حفيدة الملك العادل القطيعة بنت قطب الدين بن العادل ، وهي من عمات الملكين الأيوبيين المنتخالفين والمتحاررين ، انظر أبو القداء ، مختصر ، ج٣/ص.ص ١٩٧ - ١٩٨ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٣١٩/ص.ص ٣١٩ وبعدها .

(٢١) لم يذكر المؤرخ الجوهري ، اسم أنسى صاحب حلب المرسول إلى منفوليا . ولعل الأمر قد اشتبه على مؤرخنا ، إذ لم نعلم في مصادرنا على أن الملك الظاهر غازي ، وهو أخو صاحب حلب المعنى هنا ، قد ذهب إلى القآن المغربي ، وإنما كان الشخص الذي أرسل هو زين الدين الحانظي ، كما سيورد معنا في هذا البحث . وقد جاءت عبارة الجوهري كما يلي : « ... ، واز حلب برادر صاحب حلب .. » . « وابن جماعت هريك باجندان حمل كه لايق جتان حضرق باشد بيامدندوار اطراف دهكر جندان ابلحيان ورسل بودكه قرب دو هزار خمرگاه جهت ايشان معد كرده بودند .. » . جهانكشاي ، ج١/ص ٢٠٥ - ٢٠٦ . وقد أورد ابن العبري ، كريكوري أبو الفرج ، تاريخ مختصر الدول ، ترجمة المؤلف نفسه من اللغة السريانية إلى اللغة العربية (باختصار شديد عما ورد في الأصل) حقيقه صالحاني ، بيروت ، ١٩٥٨ م ، رواية بنفس المعنى ، ص ٢٥٦ . انظر أيضاً رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج١/ص ٥٦٨ . وقد أورد لنا في هذا الخصوص ورحالة أوروبا ، كان ممن شاهد رسل المسلمين ، وقال بأن أكثر من عشرة من السلاطين المسلمين أرسلوا وفوداً يمثلونهم ندى البلاط المغربي . انظر :

John de Plano Carpini, History of the Mongol, Ed. by: C. Dawson

«The Monogl Mission» London and New York, 1955, p: 62.

(٢٢) يارليغ ، أو يرليغ ، وبارزا أو بيزه ، كلمتان مغوليتان ، معنى الأولى رسالة ، أو قانون ، أو منشور ، أو قرار ، أو بلاغ ، أو جواب خطي من الخان . أما الثانية فهي عبارة عن لوح من الذهب ، أو الفضة ، أو الخشب ، طوله حوالي نصف ذراع ، وعرضه شبر تقريباً ، منقوش عليه اسم الله ، ثم اسم الخان المغول الحاكم ، الذي ينعم بهما الخان على الشخص الذي يجوز على ثقته ، ويعتبر حامله من أتباع

الخان المغولي . ويطلب عن كل أمير أو حاكم أو نائب مغولي أن يقدم لك من يحمل هذين الشعارين ، أو أحدهما كل مساعدة وحماية . ويحتر حاملهما ، في بعض الأحيان وفي حالات فردية ، معنى من الضرائب .

(٢٢) ينسب الأمير والنائب المغولي أرغون آغا ، إلى قبيلة « أيرات ، أويرات » ، فقد جاء إلى حكم أراضي الامبراطورية المغولية في الجنوب الغربي منها خلفاً لرجل أويغوري يدعى « كركوز » . وقد ظل يحكم هذه الولايات الغربية خمس عشرة سنة تقريباً (٦٤١ لئ ٨٦٥٤ / ١٢٤٣ - ١٢٥٦ م) حيث قدم « هولاك » من الشرق . وقد توفي في ذى الحجة من عام ٨٦٧٣ / حزيران ، بولاية سنة ١٢٧٥ م . انظر مقدمة المرحوم القزويني ، لكتاب « الجويني ، جهانكشاي » ١٠/ص ٥ وبمدها . أورد الجويني نصه في هذا الشأن كما يلي : « ... ، وحكم ممالك خراسان وما زندران و هندوستان و عراق و فارس و كرمان و لورو واران واذريجان وكرجستان و موصل و حلب و ركف أو نهاد و هريك و در خدمت بودند .. » ، جهانكشاي ، ج ٣ / ص ٧٤ .

(٢٤) هو الصاحب زين الدين محمد المعروف بالخانفي من قرية عقربا إحدى قرى دمشق . وقد سفر عدة سفرات للناصر لدى المغول ، كما يرد معنا ، وكان يرى عدم مقاومة المغول ، الذين استولوا ولاية حلب إليه فيما بعد . وبعد انتصار المماليك على المغول في عين جالوت ، هرب مع من هرب من ولايته حلب .

(٢٥) أورد رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٧١٨ نصه في هذا الشأن كما يلي : « سلطان حلب وزير خويش صاحب زين الدين خانفي رابا تحف وهدايا شاهوار به بندكي حضرت قآن فرستاده بود و او در آن دركه معرفتي وشهرتي حاصل کرده و بربليغ و بايزه در باره او نافذ كشته » . لمعلومات إضافية عن الرسل وما يتعلق بالهدايا التي تقدم للخان المغولي ، وطقوس تقديمها ، انظر :

John Carpini, The Mongol History, pp: 54-66; Benedict Brother, The Narrative, Ed. by: C. Dawson, «The Mongol Mission», pp: 79-80.

وقد كان هذان الرحالان ممن ذهب إلى « قراقرم » ، وقابلا خانات المغول ، وظلا بين ظهورهم فترة من الزمن ، وعرفا كل شيء عن المغول . لمعلومات عن هذين الرحالين ، انظر : كتابنا « أوضاع الدول الإسلامية في المشرق الإسلامي » ١٤٠١ هـ . ص ٣٧ - ٣٨ . انظر كذلك الحاشية رقم ٣٦ من هذا البحث .

(٢٦) الخياصة هي الحرام ، أو المنطقة الوسطى من قامة الرجل . انظر المكين جرجس (ابن العميد) أخبار الأيوبيين ، ص ١٦٣ . وقد كان شمس الدين هذا هو انشرف والمدير لمملكة وشؤون الناصر يوسف ، حيث أشار وحرص سيده بأن يغزو مصر ، ويستعيد ما تحت حكم الأسرة الأيوبية ، بعد أن قتل المعاليك توران شاه بن الملك الصالح أيوب ، واستولوا على حكمها . وقد قتل في تلك المعركة مع من قتل . انظر الحاشية رقم ١٧ من هذا البحث وكذلك الحاشية رقم ٣٦ .

(٢٧) لمعلومات عن « اغول - غاميش » فترة وصايتها ، انظر : الجويني ، جهانكشاي ، ج١/ص ٢١٧ وبعدها ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج١/ص ٥٨٠ كذلك انظر :

«Rubruck, Friar William, The Journey of William of Rubrauck to The Eastern Part of the World», Ed. by: W.W. Rockhill, London, 1900. «The Mongol Mission», by: C.Dawson, pp: 203.

(٢٨) ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ١٦٣ . كان بابجنوريان قد خلف نشرماغون نوريان ككاتب وحاكم عسكري للمغول على الأراضي الواقعة إلى الجنوب الشرق من امبراطوريتهم ، وذلك في عام ١٢٤٢/٥٦٤٠م ، وانحضع آسيا الصغرى بعد معركة كوله داغ سنة ١٢٤٣/٥٦٤١م أيام منطغان السلاجقة فيباغيات الدين كيخسرو الثاني (٦٣٤ - ٥٦٤٣ / ١٢٣٦ - ١٢٤٥م) ، وذلك خلال فترة وصاية « نراكيا خاتون » زوجة الامبراطور الشرقى « اكناي » . انظر التفاصيل في اس لى لى ، الأمير نصير الدين حسين بن محمد ، مختصر ملحق نامه ابن لى لى ، « أخبار سلاجقة روم » ، طهران ، ١٣٥٠ ، ص ١٣٥٠ . ش ، ص ٢٤٣ - ٢٥٠ . ابن العري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٢ ؛ كتاب سقوط الدولة العباسية ، ص ٣٦٠ - ٣٦٦ . راجع أيضاً :

Friar William Rubruck, The Journey, p:17; Grigor of Akanc. History of (the nation of the Archers (The Mongol) Ed. and trans., by: R. Black, and R.M. Frye, Harvard University Press, 1954, p:41.

(٢٩) أرسل « هولانكو » مجموعة من الرسائل إلى الحكام المسلمين ، في هذا الشأن ، في كل من إيران وآسيا الصغرى ، وإلى الخليفة العباسي ، وبدر الدين نؤلؤ ، على اعتبار أنهم يخاضعون تحت مظلة المغولية ، فواجب التبعية المغولية تحم عليهم الاستجابة لداعيهم إذا دعاهم ، ليسهموا بشكل أو بآخر في حملات المغول العسكرية ، وضد أى كان ، حتى وإن كان ضد الأخوان والوطن والدين ،

حسب منطق المنقول والتبعية والولاء لهم . راجع في هذا الخصوص كتابنا سقوط
الدولة العباسية ، ومصادر مادته ، في ص ٢٦٠ حيث ناقشنا ذلك بنوع من
التفصيل .

(٣٠) ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ١٦٢ .

(٣١) نفس المصدر السابق ، ص ١٦٨ .

(٣٢) ذكر ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ١٦٨ - ١٦٩ ، بأن وقادة الناصر
ضمت معها أيضاً أناساً مثل « الأمير سيف الدين الجاكي ، وعلم الدين قيصر
الظاهرى الحاجب وجماعة من الجند » .

(٣٣) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ . قارن هذه الرسالة
بتلك التي جاء بها رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج ٢/ص ٧١٥ ، فهي أقصر من
هذه بكثير . وقد نقلناها لكونها أقرب إلى الصحة ، لأن المؤلف كان ممن عدم
المنقول أيام « هولاكو » وابنه « آيكا » ، فكان معاصراً . كما كان مصححاً لتصوير
الدين الطوسي الذي كتب الرسالة .

أما ما يتعلق بجملة وردت في الرسالة « وثبت عندنا أنكم فجرة » فقد حانت مع
غيرها من الجمل في الرسالة ، من شخص عدو لا يمكن للمؤرخ ، الذي يتحرى
الصدق ويبحث عن الحقيقة ، أن يقبلها على علانية . ولكن ورد في مصادر
موالية ، وذات صلة ، لبنى أيوب تذكر شيئاً ربما يتخذها البعض كموثرات لما
ذهب إليه صاحب الرسالة . فقد ورد في مصنف أبن شامة عن سبط الجوزي ،
أثناء كلامه عن وفاة السبط ، قوله : « وكان منكراً على أرباب الدولة ما هم عليه
من المنكرات » تراجم ، ص ١٦٥ . ويقول الذهبي ، في العبر ، ج ٥/ص ٢٥٧ ،
عن الناصر يوسف « وكان الناس معه في بطنية من العيش ولكن مع إدارة الخمر
والفواحش » ، انظر أيضاً ابن العماد ، شذرات ج ٥/ص ٣٠٠ . وقد أورد
صاحب النجوم الزاهرة ، ج ٧/ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، نقلاً عن ابن العديم ،
وهو أكبر الأمراء أيام الناصر يوسف ومن خاصيته ، من أن هذا الأمير الأيوبي
شارب للخمر وبجائر بها .

(٣٤) ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ١٦٨ . فيما يتعلق بالوفود إلى الأمير المنقولي
راجع ما قلناه في هذا الصدد في كتابنا سقوط الدولة العباسية ، ص ٣٥٢ -
٣٦٩ .

(٣٥) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ٢٧٨ .

(٣٦) الحلبى ، شفاء القلوب ، ص ٤١٦ . انظر كذلك ابن الفوطى ، المسوب إليه « الحوادث الجامعة » ص ٣٣٩ . ويبدو لنا أن العام الذى أوردته صاحب الحوادث (٥٦٥ هـ) كان يقصد به العام السابق ، أى عام ٥٦٦ هـ أو أن هذه الرسل كانت غير تلك التى فى عام ٥٦٦ هـ ، والتى لم يشر إليها هذا المؤرخ . لأن المصادر التى بين أيدينا تكاد تتفق على أن رسالة « هولاكو » لناصر كانت فى عام ٥٦٦ هـ / ١٢٥٨ م ، وأن الرسل رجعوا فى العام التالى . حول مراسلة الناصر و « هولاكو » يذكر الذهبى ، العبر ، ج ٥ / ص ٢٢١ من أن الناصر بعث بولده مع الحافظى فى رمضان فى سنة ٥٦٥ هـ / ١٢٥٧ م أى قبل غزو بغداد ، ومعها هدايا . ويذكر المقرئى ، السلوك ١ ، ٢ / ص ٣٧٩ أن الناصر تسلّم فى عام ٥٦٤ هـ طمغا من القآن وصار يحملها فى جباصته ، وأنه أرسل إلى القآن هدايا كثيرة . وأن « هولاكو » كان يستكر على الناصر عدم إرساله أى شيء . ثم يردف فى ص ٤١١ أن الناصر أرسل ابنه إلى « هولاكو » ، ومعها هدايا وأنه سأله على لسان أبيه النجدة ضد الماليك لأخذ مصر ، لهذا السبب فارقه الماليك وذهبوا إلى المغرب ، وأن ابنه عاد إلى أبيه سنة ٥٦٥ هـ ، ومعها رسالة ورد معناها عند المقرئى (ص ٤١٥ - ٤١٦) كغيره ، وفيها التهديد والوعيد ، وأن الناصر هرب لما سمع بقدوم « هولاكو » باتجاه الشام . وهذا تناقض رهيب ، ولا يمكن فونه من المقرئى ، الذى جاء بالكثير من التعارضات والتناقضات . فالماليك ، لم يذهبوا إلى المغرب فدا السب . وستكلم عن ذلك بعد قليل . كما أن الناصر لم يطلب نجدة من « هولاكو » ، وإلا لما هرب من وجهه عندما عبر الأول سهى الفرات . وقد ناقض نفسه المقرئى فى ص ٣٩١ - ٤٠٦ . أما ابن العماد ، شذرات ، ج ١ / ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ، فيذكر أن « هولاكو » أرسل ، مباشرة بعد سقوط بغداد ، خطاب إلى الناصر ، ثم بيان ، وثالث ، ومصونها جميعاً كذلك الذى أوردته بقية المصادر . أما ابن كثير ، البداية والنهاية . ج ١٣ / ص ٢١٥ فقد ذكر بأن « هولاكو » أرسل إلى الناصر يستدعيه فأرسل الأخير ولده ومعها هدايا ، إلا أن « هولاكو » غضب ولم يقبل منه ، وقال « أنا أسير إلى بلاده بنفسى » . ومن المعروف أن هؤلاء المؤرخين (المقرئى ، ابن العماد ، ابن كثير ، والذهبي وغيرهم) قد جاؤوا بعد هذه الأحداث بما لا يقل عن مائة سنة . فكانوا ينقلون ، ويضيفون عما يخلون ، من غيرهم .

(٣٧) وقد ورد النص الفارسي « ... وجون هولاكو بايران زمين رسيد ، أحيانا در خيمه اونها مطاوعت و هوا دراي كرد (يعنى الناصر) وبهش سلاطين شام بان

سبب متهم شدوقصد اوکروند ، بکریخت وباه بندکی هولاکو خان آورد وداعیه بادشاه بعزم حلب زیاده کشت ... » . جامع التواریخ ، ج۲/ص ۷۱۸ ، انظر الترجمة العربية من الطبعة الفرنسية ، للاستاذ نشأت وآخرین ، بیروت ، ۱۹۶۱م ، ج۲/ص ۳۰۵ .

(۲۸) رشید الدین ، جامع التواریخ ، ج۲/ص ۷۲۰ العربية ، ج۲/ص ۳۰۸ - ۳۰۹ .

(۲۹) ابن العمید ، أخبار ، ص ۱۶۴ - ۱۶۸ .

(۳۰) نفس المصدر السابق ص ۱۶۴ . وقد سُمی فی الصلح بینهما رسول الخلیفة ، وأعطی الناصرُ إلی المعز القدس الشریف وبلاده ، وغزة وبلادها وجميع البلاد الساحلية إلی حدود نابلس . وقد أعیدت إلی الناصر بعد ذلك ، عندما ذهب المالیک المارہون من المعز إلیه . كان العلامة نجم الدین أبو محمد عبد الله بن التوفاء محمد بن الحسن الشافعی الفرضی (۵۹۴ - ۶۵۵ھ) المنسوب إلی بادریا ، قرية من أعمال واسط فی العراق ، من أبرز علماء عصره . وقد سُمی فی الصلح ، كرسول من خلیفة بغداد (المستعصم ، والمستنصر قبله) فی الخلاقات التي كانت لا تفترق بین الأمراء الأيوبيين أنفسهم ، ثم بعد ذلك بینهم وبين المالیک . لمعلومات أوفی عنه انظر : أبو شامة ، تراجم ، ص ۱۹۸ ، العبر نفهسی ، ج۵/ص ۲۲۳ ، الشفونات لابن العماد ، ج۵/ص ۲۶۹ . وغيرها من الكتب ذات العلاقة .

(۳۱) لقد نظرنا إلی هذه المسألة بالتفصیل فی مقال لنا میصدر قریباً فی مجلة الإدارة ، أنظر الحاشیة ۱۲ فی هذا البحث .

(۳۲) ربما یعنی رشید الدین ، جامع التواریخ ج۲/ص ۷۱۵ ، الترجمة العربية ، ج۲/ص ۲۹۶ ، عام ۱۲۵۹/۵۶۵۷م ، وهذا ما يظهر من أسلوب رسالته إلی الناصر حيث يقول : « .. وما بعد فقد نزلنا بغداد سنة ست وخمسين وستائة ... » وربما كان فی العام القادم من هذا ، أي عام ۶۵۷ھ .

(۳۳) ابن العمید ، أخبار ، ص ۱۶۹ .

(۳۴) ابن العبری ، تاریخ مختصر الدول ص ۲۷۸ . انظر كذلك « الحوادث الجامعة » المنسوب إلی ابن الفوطی ص ۳۳۹ .

(۳۵) « الحوادث » المنسوب لابن الفوطی ص ۳۳۹ .

(۳۶) فیما يتعلق بوفود الحكام المسلمين التي وفدت علی « هولاکو » ، وما بذلوه من التذلل والخنوع لهذا القائد المغولي ، حتی أن بعضهم رسم صورته علی حذاء وقدمها هدية « هولاکو » لیشرفه بالوطء بقدمیه علیها ، انظر المصادر فی هذا

الشأن الواردة في حواشي الصفحات ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٨ من كتابنا سقوط الدولة العباسية .

(٤٧) هو الأمير « الملك السعيد حس بن العزيز عثمان بن العادل بن أيوب » ، وكان صاحب بايلاس وقلعتها المعروفة بـ الصبية ، فهاجمه الناصر يوسف ، وأخذها منه ، واعتقله وأرسل به إلى البيرة فسجن بها تسع سنين . فأخرجته المغول من سجنه ، عندما جاءوا إلى المنطقة ، وأحسن إليه « هولانكو » ، وكتب له مرسوماً ببلاده السابقة ، وأخذه معه للاستدلال به ، والامتانة به ، كأحد الأمراء الأيوبيين . وقد حضر مع « كديرفا » أحد قلعة دمشق ، وسلمت إليه مملكته السابقة ، ليحكمها نهاية عن المغول . وقد ظل كذلك حتى جاء الملك المنظر قطز ، فقاتل السعيد مع المغول ، وقتله قطز فيما بعد . لمعلومات في هذا الشأن ، راجع : ابن العميد ، أخبار ، ص ١٧١ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، ج٧/ص ٢٠٧ ؛ الخليل ، شفاء القلوب ص ٢٩٢ ؛ المقرئ ، السلوك ، ١ ، ٢/ص.ص ٤١١ ، ٤٢٠ ، ٤٣١ ؛ الذهبي ، العبر ، ج٥/ص.ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ج١٣/٢٢٥ ؛ النجوم الزاهرة لابن تغري بردى ، ج٧/ص ٨٠ .

(٤٨) انظر ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص.ص ١٧٠ - ١٧١ ، راجع حاشية ٥٣ من هذا البحث ، حول علاقة الناصر ، بالمماليك ، فقد كانت علاقة عدائية من أصلها . وهذا ما يناقض رواية المقرئ السابق ذكرها في حاشية رقم ٣٦ .

(٤٩) كان الغوري من بني أيوب يتعدى على الضعيف ، بن وبنته ، فقد قتل ذلك الصالح نجم الدين أيوب أخاه العادل ، بعد أن استولى على مملكته . وهذا الناصر ، يستحود على ممتلكات السعيد ، كما ذكرنا في حاشية رقم ٤٧ . وبعد ذلك يزوج بانناصر داود في السجن ، وقد ذهب يستجيره من الملك المنبث ، صاحب الكرك والشوبك ، وهي في الأصل ممتلكات الناصر داود ، وخلق في سجنه بقعة حمص ثلاث سنوات . حول هذه المواضيع ، انظر ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ص ٧٩٣ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، ج٣/ص.ص ١٧٩ وبعدها حسب حوادث السنين ؛ ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٦/ص.ص ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٦٢ ، ج٧/ص ٣٤ ؛ ابن كثير ، ما يتعلق بالعلاقة بين المغول وحمام الدين بن عكا ، والأكراد والتركمان ، راجع تفاصيل ذلك في كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ص.ص ٢٩٠ - ٢٩٤ .

(٥٠) ما يتعلق بعلاقة حمام الدين مع المغول ، راجع تفاصيل ذلك في كتابنا سقوط الدولة العباسية ، ص.ص : ٢٩٠ - ٢٩٤ .

(٥١) لقد كانت مسألة تدمير الموز والأكراد شيئا مفروعا منه ، حسب وصايا الامبراطور المغولي لأخيه . راجع ذلك في : رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج٢/ص.ص ٦٨٧ - ٦٨٨ ، الترجمة العربية ، ج٢/ص.ص ٢٢٦ - ٢٢٧ . انظر أيضاً الجوزجاني ، منهاج الدين سراخ ، طبقات ناصر ، ترجمة وتحقيق رافرفي ، لندن ، ١٩٧٠م ، ج٢/ص. ١١٩٣ . انظر كذلك المرجع السابق ذكره في حاشية ٥٠ نفس الصفحات .

(٥٢) ابن العميد ، أخبار ، ص.ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٥٣) نفس المصدر السابق ، ص.ص ١٦٨ - ١٦٩ ، اليوسفي ، قطب الدين ، ذيل مرآة الزمان ، تحقيق دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، ١٩٥٤م ، ص ٣٤٢ . ولقد قام أولئك المماليك بأعمال عدوانية ضد الأهالي ، وأخذوا يغيرون على كل ما يقع تحت أيديهم ، فأخافوا السبل ، أثناء تجوالهم بين مصر والشام . وقد عرضوا خدماتهم حتى على الصليبيين ، كما وعدوهم تسليمهم بيت المقدس (انظر في هذا الشأن ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣/ص.ص ١٨١ ، ١٨٤) . وقد كانوا أعداء لناصر نفسه ، فقد حاربوه مع المغيث عمر ، وكان بيبرس ، وهو كبيرهم ، قد خف وهاجم الناصر ، في جركة من غركانه وقومه المماليك ، وقطع أظناب خيمته . راجع ما قاله في هذا الخصوص ابن تغري بردي ، في النجوم الزاهرة ، ج٧/ص.ص ٤٧ ، ٥٣ - ٥٤ ، ٩٧ - ١٠١ ، كذلك راجع : أبو الفداء ، المختصر ، ج٣/ص.ص ١٩٠ - ١٩٨ ، المقرئ ، السلوك ، ٢/١ ص.ص ٤١٤ - ٤١٥ ، ٤٩١ وبعدها ثم ص ٤٠٦ .

(٥٤) ابن العميد ، أخبار ، ص.ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٥٥) نفس المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٥٦) نفس المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٥٧) يوابات حلب الأربع هي : باب دمشق ، باب انطاكية ، باب اليهود ، باب الروم . عن هذه يوابات انظر الغزي ، كامل بن حسين بن محمد الحلي ، « نهر الذهب في تاريخ مدينة حلب » المطبعة المارونية ، حلب سنة ٩٠٩ ، ج٢/ص.ص ٧ - ٩ . وعن أخذ المغول هذه المدينة ، ج١/ص.ص ١٩٥ - ١٩٧ .

(٥٨) حول أخذ المغول حلب ودمشق ، راجع : أبو شامة ، تراجم ، ص ٢٠٣ ، ابن العميد ، أخبار ، ص.ص ١٧١ - ١٧٣ ، ابن العبري ، تاريخ ، ص.ص ٢٧٨ - ٢٧٩ ، الحوادث الجامعة ، المنسوب لابن الفوطي ، ص.ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ، رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج٢/٧١٩ ، الترجمة العربية ج ٢/٣٠٦ - ٣٠٧ .

الدهلي ، العبر ، ج ٥/ص ٢٤١ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، ج ٣/١٩٩ - ١٢٠٣
ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣/ص ٢١٨ ، المقرئ ، السلوك ، ٢/١ ، ص
٤٢٢ ؛ ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧/ص ٧٥ - ٧٦ ؛ ابن العماد ،
شذرات ، ج ٥/ص ٢٩٠ .

(٥٩) لعلها : يبالغون ويردون القول معهم ويشتمونهم .

(٦٠) ابن العميد ، أخبار ، ص ١٧٢ .

(٦١) نفس المصدر السابق ، والصفحة .

(٦٢) هي إبنة السلطان السلجوق في بلاد آسيا الصغرى علاء الدين ، وهي إبنة بنت
العاذل ، أي أن الناصر تزوج بابنة خالة أبيه وذلك سنة ٦٥٢ هـ . انظر : سبط ابن
الجبوزي ، مرآة الزمان ، ص ٧٩١ ؛ ابن العماد ، شذرات ج ٥/ص ٢٩٩ .
٣٠٠ .

(٦٣) كان مع الناصر ولده العزيز محمد ، والصالح إسماعيل صاحب حمص ، والأخير
ناصر الدين العزيزي وأخوه شهاب الدين ، وابن عمهما شهاب الدين ابن حمام
الدين . انظر ابن العميد ، أخبار ، ص ١٧٤ .

(٦٤) الطبردار ، هو حامل السلاح ، والفأس أمام سيده ، أثناء سيره . وهذا الكردي
كان حامل السلاح أمام الناصر لحمايته . ابن العميد ، ص ١٧٣ - ١٧٥ ؛
ابن شاکر ، نوات الوفيات ج ٤/ص ٣٦٤ . راجع كذلك كل ما يتعلق بهروب
الناصر ونحوه حتى وقع في مصيدة المنول في : أبو شامة ، تراجم ، ص ١٧٣ .

(٦٥) بعد أن أخذ المنول مدينة حلب جاءهم أخبار وفاة الاميراطور المغولي ، فرجع
« هولاكو » على الثغور ومعه قواته جميعاً ، ما عدا كتيبة صغيرة مع فائدها
« كديوقا نويان » فرجع وعبر نهر الفرات إلى الشرق . فذهب إلى مسكن له
قريب من السواحل الشرقية لبحيرة وأن ، بالقرب من منبع الرافد الشرق لنهر
الفرات . انظر رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ص ٧٨٥ . « حجة العربية ،
ج ٢/ص ٣٠٦ .

(٦٦) انظر ابن العميد ، أخبار ، ص ١٧٦ ؛ ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص
٢٨٠ ؛ رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج ٢/ص ٧٢٠ ، حيث يذكر الأخير بأن
« هولاكو » قال للناصر « .. جون مصر بكرم حاكمي شام يتودهم » . كما
يذكر المقرئ ، السلوك ٢/١ ، ص ٤٣٤ بأن « هولاكو » قد قلده منذ الشام

ومصر معاً ، وأنه سره إلى الشام ، وفي الطريق حاءته أحجار كسرة المغول في عين جالوت ، فاسترده وقتله ، ومن معه .

(٦٧) راجع ما سبق وقتناه في هذا الموضوع في كتابنا السابق ذكره ، سقوط الدولة العباسية ، ص.ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ، ٢٦٨ ، ١٠٠ .

(٦٨) راجع الحاشية رقم ٤١ من هذا البحث . ولقد كان لوجود الناصر أسيراً لدى المغول السبب الأول والأخير في مسألة استسلام بعض قلاع الشام . وقد استعصت على المغول ، فلما حوَّ بالناصر أمرهم بتسليمها فسلمت نزولاً بعد رغبته ، وأمره . انظر : أبو الفداء ، المختصر ، ج٣/ص ٢٠٤ .

(٦٩) فيما يتعلق بهزيمة المغول على أيدي المماليك ، في عين جالوت يوم الجمعة ٢٥ أو ٢٧ من رمضان ٦٥٨هـ / ١١ أو ١٣ أيلول ، سبتمبر ١٢٦٠م راجع : أبو شامة ، تراجم ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ، وغيره من مصادر هذا البحث ، حسب حوادث السنين ، في كل من أبي الفداء ، ج٣/٢٠٥ - ٢٠٧ ؛ ابن كثير البداية والنهاية ج١٣/ ٢٢٠ - ٢٢١ وغيرها .

(٧٠) ابن مقل ثوران شاه والصالح إسماعيل على أيدي التتار انظر سبط الجوزي ، آة الرمان ، ص.ص ٧٨١ - ٧٨٣ ؛ أبو شامة ، تراجم ، ص ١٨٥ ؛ الذهبي ، العبر ج٥/ ١٩٩ - ٢٠٠ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، ج٢/ ١٨١ - ١٨٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣/ص.ص ١٧٧ وبعدها ؛ وفي ص : ١٨٠ ؛ المقرئ ، السلوك ، ١ ، ٢ ص.ص ٣٥١ وبعدها ، وص ٣٧٨ - ٣٧٩ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٦/ص ٣٧٠ - ٣٧٢ .

(٧١) ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ١٧١ .

(٧٢) أورده رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ج٢/ص ٧٢٤ باسم مجد الدين مغولي ، ويبدو لي أن ما أورده ابن العماد وغيره من أن « هولاءكو » هو الذي قتل الناصر شخصياً غير دقيق .

(٧٣) يظهر أن المؤرخ قد اشتبه عليه الأمر ، فلم يكن للناصر يوسف ، على ما يبدو لي ، معه من أولاده سوى محمد هذا . انظر الحنبل ، أحمد بن إبراهيم ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تحقيق ناظم رشيد ، العراق ، ١٩٧٨ ، ص ٤٤٧ .

(٧٤) ابن العبري ، مختصر تاريخ الدول ، ص.ص ٢٨٠ - ٢٨١ . كان مقتل الناصر يوسف في أواخر شهر شوال عام ٦٥٨هـ/نوفمبر (تشرين الثالث) ١٢٦٠م .